

# ادفعْ دولاراً تقتلْ عربيًّا!..

طُبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٩٥٤
وتعيد دار العلم للملايين نشره
بمناسبة انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠


لورانس غريزوولد

نقله إلى العربية
منير البعلبكي


أوّل كتاب منصف وضعه صحفيّ أميركيّ زار الجبهات العربية أثناء حرب فلسطين وشاهد ما ارتكب اليهود من فظائع، وقد أوعزت إسرائيل إلى جميع سفاراتها في الخارج بمصادرته وإتلافه.

يعود ريع هذا الكتاب لانتفاضة الأقصى


دار العلم للملايين

# ادفعْ دولاراً تقتلْ عربيًّا!..

طُبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٩٥٤
وتعيد دار العلم للملايين نشره
بمناسبة انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠

لورانس غريزوولد

نقله إلى العربية
منير البعلبكي

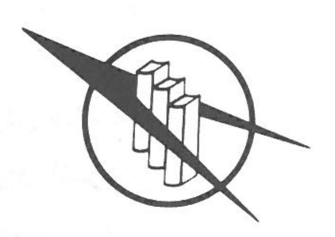
يعود ريع هذا الكتاب لانتفاضة الأقصى



دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
بيروت ٢٠١٤ / ٢٠٤٥
لبنان
www.malayin.com





الطبعة الثانية

تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٠

# مقدمة

كانت الواقعة التي أثّرت في نفسي، أكثر ما يكون التأثير، ذلك الصيف من عام ١٩٤٨، أن الأنباء والتعليقات الخاصة بحرب فلسطين كانت متحيّزة تحيّزًا كاملًا. فقد بدا وكأنّ الصحف جميعًا كان لها مراسلون يمدونها بأحداث القتال من تل أبيب. كان صوت إسرائيل قويًا جدًا في الولايات الأميركية المتحدة، أما صوت بلاد العرب فكان صامتًا.

وكانت هذه الواقعة أبرز ما كانت في زوايا الشوارع في مانهاتان[1]. فهناك نُصبت مكبرات الصوت على السيارات الكبيرة أو على المنابر، وراحت تخور متوسلة إلى الأميركيين أن «يُعطوا دولارًا ليقتلوا عربيًا». وأحسب أن ذلك هو الذي دفعني إلى أن أتخذ قراري. فقد أبدع العرب - وهذا ما كنتُ أعرفه من قبل - مدنيةً وحافظوا على حضارات. أما اليهود فلم يوفقوا إلى شيء من ذلك البتة. وأنشأتُ أراجع الصحف والمجلات. فليس من شك في أنّها كانت مشوقة إلى الوقائع المتصلة بتلك الحرب. ولكن أنّى لها أن تعرف الحقيقة إذا لم تُلمّ بوجهة النظر الأخرى المقابلة لوجهة نظر الصهيونيّين؟

وفي ذلك الحين كنت أعمل في «المعهد الآسيوي» في نيويورك، وهدفًا لسهام الصهاينة ورجال الفكر الموالين للصهاينة. وعندما أعلنت أن العرب ينبغي أن تكون لهم وجهة نظرهم الخاصّة في المشكلة، ثارت من حولي ضجة مغضَبَة تصمّ الآذان وسجل ضغط الدم عندي

(١) جزيرة في مدينة نيويورك عند مصب نهر الهودسون. ويبلغ عدد سكانها نحوًا من مليوني نسمة. [المعرب]

ارتفاعًا ملحوظًا. وواضحٌ أنّي لو بقيتُ في نيويورك إذن لما كان ثمة مفر من وقوع واحد من أمرين: إما أن أسمح لنفسي ولمبادئي أن تغرق في تيار يهود نيويورك الغامر النابح، وإما أن أتسلح بقذائف قاتلة وأهاجم مكبرات الصوت، معرّضًا نفسي للاعتقال والسجن.

وحين أطلعني أحد الأصدقاء على إعلان كتَبَهُ ودَفع أجوره، في أغلب الظن، «بن هشت» - إعلان يقول إنّه كلما قتلت عصابة شترن جنديًا بريطانيًا أو رجلًا عربيًا «أقام اليهود عيدًا صغيرًا في قلوبهم» طفح الكيل ولم أعد أطيق صبرًا. كانت ذكرى «مشروع مورغانتاو»[١] لإبادة ألمانيا بسبب من سوء تصرف رجل نمساوي مضطرب العقل[٢] لا تزال عالقةً علوقًا كريهًا في ذهني، وكان الصهاينة يعملون على تضخيمها وتكثيفها.

صحيح أنّ اليهود لم يكونوا كلهم مسؤولين عن ذلك. فليس يغيب عن بالي ذلك الإعلان الذي استغرق صفحة بكاملها من الـ«نيويورك تايمس» والذي ناشد الرئيس ترومان أن يفكّر مليًّا قبل أن يقدم على الاعتراف بدولة إسرائيل. وأنا أدري أنّ مئات من اليهود، حتى في مدينة نيويورك، ما كانوا يعطفون على حركة[٣] بدت لي وهمية وهستيرية كوباء مرض الرقص السنجي (خوريا) الذي اجتاح أوروبة في القرون الوسطى.

وعلى الرغم من تلك الدعاية الظمأى إلى الدم فقد أبيت على نفسي أن أتعصّب لأيّ من اليهود أو العرب. ولكنني كنت مشوقًا إلى معرفة الحقيقة. وكنت قليل الثقة بالمستقبل الهادئ الوادع كما صوره رجال السياسة عندنا، وكان مستقبل الشرق الأوسط يهمني شخصيًا.

(١) هنري موغانتاو الصغير، ناظر المالية الأميركية من ١٩٣٤-١٩٤٥. [المعرب]
(٢) يقصد أدولف هتلر. [المعرب]
(٣) المراد الحركة الصهيونية. [المعرب]



ولقد أكدت لي نظرةٌ إلى جواز سفري أنّه ما تزال أمامه سنةٌ أو نحوها قبل أن يبلغ أجله ويفقد فعاليته، وكان كل ما بقي عليّ أن أعمله قبل القيام برحلتي إلى الشرق الأوسط أن أكفل الحصول على شيء من المال يمكّنني من تغطية نفقات الرحلة.

ولم يكن ذلك شيئًا هينًا. والواقع أنّي حين أعلنت أصدقائي في الصحيفة وفي إذاعات الراديو بما عزمت عليه من السفر، أكدوا لي أن في ميسوري أن أوقع عددًا من العقود الصحفية يعود عليّ بمكافأة سخية - إلى أن اكتشفوا أنّي اعتزمت أن أوجّه وجهي شطر الدول العربية. عندئذ غدت أقوالهم متحفظة حيية، وخبا شوقهم وخمد. صاروا يقولون: ولكنّ هناك عددًا كبيرًا من مراسلي الصحف الأميركية في الشرق الأوسط، وإنّ وكالات الأخبار تزوّدهم دائمًا بأوفى الأنباء، وإن ثمّة أزمة حادة في الورق... وعلى أيّ حال، فإذا ما كنتُ أصرّ على الاحتفاظ بهذه الانطباعة على وجهي فهناك ينشأ الاعتراض من شعبة الإدارة. إذ كيف تستطيع الصحيفة أن تحصل على الإعلانات من المحالّ والمؤسّسات اليهوديّة إذا نشرت مادةً فيها ضربٌ من التأييد للعرب؟ وأذكر أنّي غمغمت بكلام يدور حول حرية الصحافة والرأي التي نعتز بها، ولكن لم يكن ثمة - على الرغم من ذلك - متسع للإفاضة في الحديث، فبرحت الجريدة مدحورًا.

وأيا ما كان، فقد التمعت إيماضة من أمل عندما وافقت إحدى محطات التلفيزيون على أن تشتري منّي بعض الأفلام التي أسجّلها في رحلتي تلك، لقاء ثلاثة دولارات للقدم الواحد، وأكدت لي أن في استطاعتي أن أطمئنّ إلى أنّي سأبيعها مئة قدم على الأقلّ، كلّ أسبوع. وكان ذلك كلّ ما أحتاج إليه. فما كان منّي إلّا أن أخذت سلفةً من المحطة، واشتريت بطاقة سفر، في اليوم التالي إلى البصرة.

وآثرت سفينة بطيئة إلى حدّ معقول لأسباب عديدة. أولها أنّي كنت أرغب في أن أُلمّ بمجريات التاريخ المعاصر. فمنذ سنة ١٩٤٥،

يوم كنتُ في آسية الجنوبية الشرقية – من الفيليبين إلى تايلند[1] وهندونيسيا – وحتى الأشهر القليلة التي سبقت انسحاب البريطانيين من فلسطين وأنا أكاد لا أعرف عن الأحداث التفصيلية التي أدت إلى اندلاع نار الحرب بين إسرائيل والدول العربية إلا قليلًا. وفيما عدا القباحة المثيرة التي تكشّف عنها الخطباء اليهود في زوايا الشوارع النيويوركية لم تكن تعتمل في نفسي عصبيةٌ خاصة. ولكنّ الاستماع إلى خطب هؤلاء البرابرة كان نادرًا ما يكسب المستمعين ويوقع في قلوبهم العطفَ على قضية إسرائيل.

وأيًا ما كان، فقد كنت في سبيلي إلى جزء من العالم لم تقع عيناي عليه منذ عشرين سنة تقريبًا.

**لورنس غريزوولد**

(١) سيام. [المعرب]



# ١. مع مواكب الحضارة

إنّ تاريخ الحضارة يبدأ مع العرب. فجنة عدن – وفقًا للكتاب المقدس – تحدها أربعة أنهار هي الفرات، ودجلة، والنيل. أمّا النهر الرابع فلا يزال إلى اليوم مستعصيًا على التحديد. ولكن ثمة شكًا قليلًا في أنّ كلمة «عَدْن» هي تحريف للكلمة السومرية «عدينو»، وتعني المرج الواسع، أو السهل.

وفيما كانت مصر تناضل، ما تزال، من أجل توحيد النيلَيْن وإنشاء حضارة ما برحت تسحب ذيولًا من المجد الفرعوني، كانت «أريدو» و«عكر قوف» السومريتان مدينتين كبيرتين زاهرتين. وإذ كان نهرا الفرات ودجلة يلتقيان شمالي «أور» ويشكلان نقطة اتصال أخذت فيضاناتها السنوية تدفع بالدلتا في اتجاه الخليج الفارسي بنسبة نحوِ من مئتي ياردة كلّ عام، فقد نشأت مدن جديدة حول الأرض الخصْبة، وغدت ممالك سومر المدينية غنيةً قوية، ومن ثمّ، متبلدةً كسولًا.

ولسنا نعرف شيئًا كثيرًا عن أولية السومريين. ولكن الشيء الثابت أنّهم كانوا غير ساميين. وكانت أرضهم تنبسط ما بين ضفاف دجلة والفرات وعلى طولها. والواقع أنّهم كانوا ينعمون في «عَدْنهم» تلك عندما برزت أول موجة من موجات الساميين المهاجرين خارج أسوار مدنهم. وما هي إلا فترة حتى استولى الرعاة الساميون على سومر، كما استولوا على فلسطين، وورثوا عن السومريين أشياء كثيرة منها القناطر والعقود المعمارية والعربات ذوات العجلات.

وحوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. قاد الزعيم الساميّ، سرجون الأول، قواته لقتال السومريين وسحقَ فيالقهم في سلسلة من المعارك تركت

العربَ[١] سادةً على البلاد التي انتهت في ما بعد إلى أن تصبح «بابل». وثبّت «نارام سين»، حفيد سرجون الأول، هذا الفتح. وأشرقت شمس الحضارة العربية التي لا تزال معنا على الرغم من احتجابها أربعة قرون.

وإذا كنا نجهل أصل الشعب الذي سكن سومر، فكذلك نجهل أصل العرق الساميّ، على وجه الدقة. فهناك من يقول إنّ «أبناء سام» هؤلاء قد نشأوا، أول ما نشأوا، بين حاميي أفريقية الشرقية، ثم انتقلوا إلى شبه الجزيرة العربية من طريق باب المندب. وهناك من يقول إنّ بلاد العرب هي مهد الجنس السامي. والرأي الثاني أرجح.[٢]

وسواء أقدم الساميون من أفريقية أو من تلال سبأ فقد انتشروا في داخل الجزيرة من زاويتها الجنوبية الشرقية التي تشكل اليوم مملكة اليمن. ويغلب على الظن أنّ خط الهجرة كان يمتدّ بمحاذاة النجاد المتاخمة للبحر الأحمر. تلك كانت طريق القوافل القديمة من الصين والهند، والسبيل الوحيدة التي تمتاز أرضها بقابليتها للزراعة، وبأنّها تنبت عشبًا تأكله الجمال والحمير والأغنام التي تؤلّف إلى اليوم عماد الحياة الاقتصادية عند البدو، أو عرب الصحراء.

وينبغي أن تكون القبائل السامية المنتشرة في الأرض قد انحرفت - عند موقعي مكة والمدينة الحاليين - في اتجاه الشرق والشمال الشرقي، عبر السهوب الوسطى وعبر أودية الجبال، نحو الخليج الفارسي. في حين اتجهت قبائل أخرى نحو ذلك الصَّدع الجيولوجي الهائل الذي ينتظم البحر الميت ووادي الأردن الذي يُعرف اليوم بوادي عربة.

وفترة التوسع هذه من هضاب اليمن إلى «فلسطيا» التي حرّفها

(١) من الواضح أن المؤلف يقصد بالعرب هنا الساميين. ولعله يعتبر الساميين كلهم عربًا على اعتبار أنهم انطلقوا من شبه جزيرة العرب. [المعرب]

(٢) تصرفنا في ترجمة هذه الفقرة على أساس من المصادر التاريخية الموثوقة بسبب من اضطراب الأصل. [المعرب]



الرومان إلى «فلسطين» استغرقت - من غير شك - نحوًا من ألف سنة كاملة. وفي وقت ما من هذه الفترة الألفية انفصل أسلاف اليهود، في ما يبدو، عن الجذر الساميّ. ولسنا ندري السبب الذي أدى إلى هذا الانشقاق. وأرجح التعليلات لهذا الحدث أنّ العبرانيين كانوا أقلّ ميلًا إلى التحضر والاستقرار من سائر العرب فهم يمعنون في الترحّل مع مواشيهم، وأقل انصياعًا للمواضعات التي تنشأ دائمًا مع البيت والعمران البشري. وهكذا عبرَ هؤلاء المهاجرون المغامرون، المتمردون، شبه جزيرة سيناء إلى مصر حيث ترك أثرهم في النظام المصري الاجتماعي طابعه على التاريخ.

وقبل إبراهيم، الأكّدي الأوريّ، بفترة طويلة، هبط الرعاة العبرانيون دلتا النيل الخصيبة وأخرجوا الفلاحين المصريين منها. ولم تكن مصر آنذاك دولة قوية. فبعد أسرة «آختوي» التي حكمت البلاد حكمًا ضعيفًا من سنة ٢٢٧٠ إلى سنة ٢٢٢٢ ق.م عرفت مصر عهدًا من الحروب الداخلية أشاع فيها الفوضى وحرمها حكومةً مركزية قوية. وقد نتج عن ذلك أن اجتاح الغزاة الساميون المدن القائمة في دلتا النيل، وخضعت مصر نفسها لسلطانهم عندما بدأ حكم الهكسوس (الملوك الرعاة) وخلفاؤهم الذي دام خمسمئة عام.

ولم يكن ليحيط بهم، بادئ الأمر، شيء من أبهة الملك وجلاله. وقد قال المؤرخان المصريان «إيبوار» و«مانيثو» إنّهم سوقةٌ أخسّة سدوا منافذ الشوارع وأفسدوا لغة مصر. وأيًا ما كان فقد استولى هؤلاء السوقة على زمام السلطة المدنية، ونهبوا الأغنياء وأخرجوهم من بيوتهم. ثمّ إنّ انهيار البنية الاجتماعية كلها وموجات طامية من المجاعة أكملا عمل الغزاة، فلم يجدوا، حين أقاموا عاصمتهم في ممفيس، آخر الأمر، غير مقاومة ضئيلة. وفرض ممثلون لستّ أسرٍ حاكمة سلطانهم على نواحٍ من مصر مختلفة قبل أن توفّق قوّات مصر الجنوبية إلى إخراج الهكسوس من البلاد. ويذكر المؤرخ اليهودي يوسفيوس أنّ

جيش الهكسوس طوردَ على محاذاة البحر الأحمر، قرب البحيرات المرّة في أغلب الظن حيث كانت المياه ضحلة، وإلى سيناء. وينص هذا المصدر على أنّ عدد أفراد ذلك الجيش المنهزم بلغ مئتين وأربعين ألف رجل، وأنّهم «استقروا في بيت المقدس وأسسوا مملكة يهوذا».

ويحسب بعض المؤرّخين أنّ هذا الجلاء الإجماعي هو الأصل لقصة خروج بني إسرائيل من مصر كما وردت في الكتاب المقدس. في حين يُنكر بعضهم الآخر ذلك. وأيًا ما كان فقد خضعت بيت المقدس (أوروشليم – أوروشالايمو) وغيرها من المدن الفلسطينيّة أو الكنعانية لسلطان اليهود حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م. وهو تاريخ يكاد يتفق وظهور دعوة إخناتون الوحدانية في مصر. وليس ينبغي أن يُظنّ أنّ هذا الجيش المفكك المهزوم المطرود إلى صحارى سيناء وجبالها شنّ غارة مباشرةً ومظفّرة على أرض كنعان. فلعلّ قرنًا كاملًا من الزمان انقضى قبل أن يوفق حفدة ملوك الرعاة هؤلاء إلى أن ينتهوا إلى أرض اللبن والعسل، ليجدوها قويةً حصينةً، وليقرروا الإقامة خارج أسوارها في انتظار الفرصة السانحة.

وفي الوقت نفسه، وبعد أن طوقت قوة من المصريين المستعمرات العبرانية وأسرت أهلها، انتهت المبادئ الدينية الجديدة القائلة بإله واحد وبتساوي الأرواح في عالم آخر، إلى شعب كان يكره تقديس «الأبعال» المحليين في كنعان كرهًا طبيعيًا، فإذا هو على أتمّ ما يكون من الاستعداد لقبول دين يجحد المعبودات الخرقاء الثقيلة الوطأة وينكر أن تكون للأغنياء أيما ميزة على الفقراء، بعد الموت. وجائز أن يكون الدين اليهودي، وهو دينٌ عملي بأكثر ممّا ينبغي بالنسبة إلى شعب مترحل، قد نشأ عن هذه العقيدة المصرية. والشيء الذي لا ريب فيه أنّ مزامير داود وترانيم أخناتون تتشابه تشابهًا كبيرًا جدًا. وفي كتابه «فجر الضمير» قدّم الدكتور جيمس بريستد ترجمات متوازية تؤكد هذا الاحتمال.

وهكذا ففي مستهلّ القرن الثالث عشر ق.م. كان العبرانيون قد



مكّنوا لأنفسهم في أرض كنعان، فيما بلغت الحضارة العربية في بابل (باب الإله) أوج مجدها وشرعت تنحدر بعض الشيء. وكان عهد حمورابي الملك الأموري (١٩٤٨–١٩٠٥ ق.م.) قد أعطى القومَ شرائع شهيرة، وعُني بإعادة التحريج، ودشن برنامجًا للري جعل من الطرف البابلي من الهلال الخصيب الجزء الأكثر غنًى وإخصابًا من نصف الدائرة العربية كلها التي تؤلف غياضُ فلسطين طرفها الأقصى الآخر. ومن نواحٍ كثيرة كانت بابل حمورابي مدينةً عصريةً إلى حد يثير الدهش. فقد كانت المدينة تنبسط في محاذاة الفرات العظيم وقد نهض «شارع المواكب» العريض على موازاة النهر تحيط به أبنية ضخمة عالية تتوّج الجنائن والأشجار كثيرًا منها.

وكان «باب عشتروت» الحصين الذي تحميه سلسلة من الأسوار مزخرفًا ملوّنًا ومحلًّى بنقوش رائعة تمثل ضروبًا من الحيوان. وكان هيكل مردوخ العظيم، المعروف ببرج بابل، يرتفع فخمًا جليلًا في «الحيّ المقدّس» في الطرف الجنوبي من العاصمة. وكان يصلها ببابل الغربية، وهي ضاحية تقع وراء النهر، جسرٌ لا تزال دعائمه راسخةً في أعماق النهر. وفي فترة متأخرة كانت ثمة طريق تمتدّ تحت الأرض على طراز «نَفَق لنكلن» أُنشئت على ما يظهر في عهد الملكة سميراميس نصف الأسطوري. وليس من ريب في أنّها كانت عملًا رائعًا من أعمال الهندسة لأن تدفق الفرات وعمقه يجعلان منه نهرًا أعتى وأخطر من نهر الهدسون في نيويورك.

حتى إذا حكم الكلدانيون بابل تقلّصت رقعتها تقلصًا كبيرًا بسبب من غارات الحيثيين والأشوريين عليها. لقد ظلت سامية ولكن حكامها الآن كانوا جماعة من التجار. والواقع أنّ مآثر بابل الثانية هذه في ميدان الحضارة كانت لغويةً وعلميةً. ففي ظل الكلدانيين حلّت اللغة الآرامية محلّ العبرية حتى لقد استعملها اليهود أنفسهم في معاملاتهم اليومية، ووُلدت الأبجدية. واصطنع العلماء الكلدانيون المعارف

الفلكية التي ورثوها عن كهان مردوخ وعشتروت، إله الشمس وإلهة القمر، لكي يحسبوا سير النجوم ويخترعوا نظامًا جديدًا للكشف عن المستقبل عُرف آخر الأمر بعلم التنجيم.

وفيما كانت بابل الكلدانية – وقد غدت الآن طوال خمسة قرون مرزبانيةً فارسية – تعبد آلهتها وتقيم علاقات تجارية مع الهند والأراضي الواقعة وراء البحار الشرقية، ومع مصر، ومع اليونان والبلدان الخاضعة لرومة، كان اليهود يحيون في يهوذا حياة قلقة مضطربة. فقد كانت المملكة القصيرة الأجل التي نحتها يشوع من عرب فلسطين ومكّن لها الملك داود قد انقسمت على نفسها بعد موت الملك سليمان، وغرقت البلاد في بحر من الدماء بسبب من الحروب الأهلية المهلكة، والغارات الخارجية، وكانت آخرها تلك التي شنّتها كتائب رومة. وقاوم العبرانيون، ولكن مقاومةً غير كافية، وبسطت رومة سلطانها على فلسطين باستثناء بعض الحصون الطبيعية التي لا تُقهر من مثل مدينة البتراء النبطية (العربية) وغيرها.

واستُهلّ التاريخ المسيحيّ في أعقاب قرنين اثنين من حروب العصابات أيضًا. ذلك أنّ ما يُعرف بالحروب المكابية لم يكن أكثر من سلسلة من الغارات الطارئة شنتها على المدن الخاضعة لاحتلال الرومان عصابات مسلحة من متعصبي اليهود. والحق أنّ هؤلاء المسلحين أذكوا هيستيريا العصر الجماعية، وبخاصة في ما بين اليهود، بما قاموا به من غارات ليلية لا تعرف الرحمة أو الاستبقاء، على المدن، وعلى خزانة الدولة، ودار الصناعة (مصانع السلاح أو مستودعاته)، ومن إضرام النار في البيوت، وذبح «المتعاونين». ثمّ الانكفاء تحت جنح الظلام. وأيًا ما كان، فقد وفق الفرسان الرومان إلى أن يضعوا آخر الأمر حدًا لهذه الحال.

واعتبر الاتقياء من يهود فلسطين الغزو الروماني للديار المقدسة إهانةً لـ«يهوه». فقد كان رومان ذلك العهد يعبدون مجموعة الآلهة



والإلاهات، بعضها يوناني وبعضها مصري. وإذا كانت عبادة إيزيس – وهي عند المصريين بمثابة عشتروت عند الساميين – بغيضة إلى قلوب اليهود، فقد أُولع بها الرومان ولوعًا كبيرًا. وسرت بين اليهود نبوءةٌ تقول بأنّهم سوف يستعيدون قوتهم، وبأنّ رسولًا من رسل يهوه سوف يعيد مجد داود القديم. في السنوات التي عقبت الحروب المكابية أُخضعت كل إشارة وكل فألٍ لامتحان دقيق، ودُرست كل حادثة غير سوية من أحداث الطبيعة لتقرير ما إذا كان يوم المسيح قد آذن بالانبلاج. لقد ظهر عددٌ كبير من الدجالين، طبعًا، ولكنّ ارتقاب رسول يهوه ما فتئ يشغل الناس في فلسطين ويصبغ حياة اليهود فيها بصبغة خاصة.

وكان بيلاطس البنطي يحكم فلسطين عند مُفتتح الحقبة المسيحية. ذلك كل ما نعرفه من التاريخ. والواقع أنّ وجود يسوع، ابن يوسف، وحياته إنما يأخذان في الانبثاق حوالى القرن الثالث بعد الميلاد مع أسفار الإنجيلين الأربعة. وكانت عقيدة التوحيد قد تسرّبت في ذلك العهد إلى شبه جزيرة العرب، والأراضي المحيطة بالخليج الفارسي. وبقدر ما كانت حياة يسوع التاريخية غامضةً كانت حياة محمد قطعةً من التاريخ. فقد كان محمد الذي قدّم لقومه القرآن – وهي كلمة لا تعني شأنُ كلمة Bible غير «الكتاب» – من بيت هاشم من قبيلة قريش الحجازية. وكان في أول أمره يرعى الغنم ثم تزوج من أرملة اسمها خديجة. وقد بسط سلطانه على شبه الجزيرة كلها تقريبًا، حتى إذا توفي وُفِّقَ خلفاؤه إلى أن يوسّعوا دنيا الإسلام – خلال قرن واحد ليس غير – فهي تمتدّ من جبل طارق إلى المحيط الهندي.

وقبل عام الهجرة، الذي يُستهلّ به التقويم الإسلامي، شقيت بابل بعدد من الفتوح غير الساميّة. وفي فلسطين، استؤنفت حرب العصابات اليهوديّة بعد سقوط أسرة هيرودس، ثم تطوّرت سريعًا إلى حرب أهلية اشترك فيها الفريسيون والصدّوقيون وبعض الجماعات الدينية المنشقة.

وكان الإمبراطور الروماني فسبازيان سعيدًا بأن يدفع هذه الفرق المتنازعة يُفني بعضها بعضًا، مترقبًا الفرصة المناسبة للإفادة من الوضع. وأخيرًا استولت القوات الرومانية على أورشليم وأُطلق عليها اسم «آليا كابيتولينا» Aelia Capitolina.

وحوالى السنة ٧٠ ب.م. كان اليهود في فلسطين في حالٍ بشعة من التفكك والفوضى. وكان العرب الأيدوميون يشكلون منذ زمن طويل أقوى شعوب فلسطين غير اليهودية. وبتدمير هيكل هيرودس لم يبق لليهود مركز ديني يجمع شملهم. واستمرت حرب العصابات وامتدت إلى الخارج. وفي بلاد الرافدين أجرى اليهود مذبحة ذهب ضحيتها جماعة من العرب وغيرهم، فما كان من الإمبراطور تيطس إلا أن انتقم من اليهود انتقامًا عاجلًا ودمّر أورشليم تدميرًا.

وبعد قرن من الزمان شهدت فلسطين عهدًا جديدًا من الفتن والحروب. ولم تنقضِ هذه الفترة إلا بعد سلسلة من المعارك الدموية. وحُظّر على اليهود الباقين في فلسطين الدخول إلى أورشليم مهما تكن الظروف. ويذكر ديوكاسيوس أن اليهود خسروا ٥٤٠،٠٠٠ رجل في هذه الحروب، عدا الآلاف الأكثر عددًا من أولئك الذين قضوا بالأوبئة والمجاعة. وعندما بزغ فجر القرن الثالث للميلاد لم يكن في فلسطين كلها غير قلة قليلة من اليهود. والواقع أن هجرة اليهود الاختيارية من فلسطين ابتغاء التجارة أو التماسًا للأمن لم تخلّف وراءها غير عدد قليل من القرى المتناثرة، ولكن كل مرفأ من مرافئ البحر الأدرياتي والبحر الأبيض المتوسط أخذ نصيبه من المهاجرين. ووجّه آلاف من اليهود وجوههم إلى بابل، وشخص آلاف آخرون إلى بلاد العرب. ولكن النفوذ اليهودي في فلسطين الذي فرض نفسه في فترات متباينة على ساميي الطرف الغربي من الهلال الخصيب أصبح خبرًا ماضيًا.

ومن هذه الخلاصة الموجزة، ولكن الصحيحة الدقيقة، للاحتلال اليهودي لفلسطين، **يدرك القارئ أن دعوى الصهيونيين بأن يكون ذلك**



**الفطر وطنًا قوميًا لهم إنما تستند على عهدٍ شفهي خرافي أعطاه يهوه لموسى**. والواقع أن البروفسور آلبرايت، أحد كبار الثقات العالميين في تاريخ فلسطين القديم، ينص في وضوح لا يحتمل اللبس على أنه ليس في فلسطين أيما آثار يهودية ترجع إلى ما قبل العهد الروماني الأنطونيّ. قال[١]: «كان كثير من العلماء يعتقدون - قبل أن يبسط كول Kohl وواتزنجر Watzinger ومن بعدهما سوكينيك Sukenik نتائج أبحاثهم - أن بعض الكُنُس الخربة في الجليل ترجع إلى عهد المسيح، قبل الثورة الأولى. أما اليوم فلم يبق أيما ريب في أن هذه النظرة كانت خاطئة، وفي أنه ما من أثرٍ باقٍ، في فلسطين، يرقى إلى ما قبل العهد الأنطونيّ على أبعد تقدير».

ويزعم الصهاينة أن ما يدعى «حائط المبكى» هو بقية من هيكل سليمان. وهو زعم باطل لأن الحائط غرانيتي، وهيكل سليمان إنما بناه الفينيقيون من خشب الأرز. ويكاد يكون من الثابت اليوم، عند العلماء، أن ذلك الجدار جزء من الهيكل الذي بناه حوالى سنة ٢٠ ق.م هيرودوس الكبير، الأيدوميّ، الذي اعتنق اليهودية لأغراض سياسية[٢] وهكذا فإن المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وقبة السلسلة هي وحدها، بين آثار فلسطين، التي ترقى إلى ما قبل الاحتلال الصليبي للبلاد.

وفي بابل عرفت السلطة الساميّة أيامًا عسيرة، على الرغم من أن عهودها كانت آمنةً إذا قيست بالعهود التي مرت بها فلسطين. وهكذا خضع الكلدانيون أولًا لحكم الفرس، ثم خضعوا في القرن الثالث قبل الميلاد لحكم الإسكندر المقدوني.

وأخيرًا أخلى المقدونيون محلّ السلطة للفرس الأرساكيين الذين

(١) W.F. Albright, *Archaeology of Palestine*, 1919.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بنوا القصر العظيم في المدائن وأنشأوا أمبراطورية قُدِّرَ لها أن تخوض الحرب ضد رومة. وكانت مصر قد غدت هيلينية بعد أن غُودر أحد قواد الإسكندر، بطلميوس، حاكمًا على الإسكندريّة. واستعادت شبه الجزيرة العربية التي خضعت فترة قصيرة لسلطان الفرس، استقلالها. وحين هزم المقدونيون داريوس الثالث انقطعت هدية اللّبان نفسها. ولكن حتى في بابل كان السكان الكادحون الناجحون لا يزالون ساميين عربًا: زراعًا ورعاةً وشعراء وعلماء وتجارًا لم تزعجهم سلطة الساسانيين النائية، وكان مقرها الآن في أنطاكية السورية.

وفي كل مكان كانت أديانٌ في دور الاحتضار. فقد ماتت الزرادشتية، بوصفها ديانةً عالمية، مع داريوس الثالث. والميثولوجيا الهيلينية التي أشرفت على الموت في بلاد اليونان لم تصل إلى رومة سليمةً لم تمسّ. وكان الرومان يستوردون آلهة جديدة من مصر وسورية، فحلّ تموز، ومثراس، وغيزيس محلَّ أبولو وفينوس، إلى حدّ بعيد. وفي مصر، اعتنق الأقباط النصرانية، في حين أحالَ جنود رومة الوثنية آلهة مصر وإلاهاتها إلى خرافة، في ما بين عشية وضحاها تقريبًا.

وفي الجوّ المضطرب الذي عاشت فيه رومة المتداعية إلى السقوط اضُطهِدت النصرانية وأخصبت بسبب من هذا الاضطهاد نفسه. ودخل في الدين الجديد آلافٌ من الجنود والمهاجرين الأوروبيين والبلقانيين. ولكن بالرغم من كل ما حققته النصرانية من تقدّم فقد ظلت الحقبة على العموم غنوستية لا أدرية.

وكان تأثير الإسلام في عالم مثل هذا متردّدٍ مترنح حاسمًا جدًا. كانت الإمبراطوريات القديمة قد تّقوضت. وكان الفرسَ قد حلّوا محل اليونان. وحلت رومة محل أمبراطورية الإسكندرية. ولئن ألحق الإسكندر العروش الشرقية بامبراطوريته، لقد انحصرت أعظم انتصارات رومة في أوروبة نفسها. ولم تعد مصر، بعد أن جثم على حدودها عدوّ



قوي، دولة يُخْشى بأسها. وفي بيزنطة، كانت الأمبراطورية الشرقية قد جنحت إلى الأفول، وكانت عظمتها قد انتهت إلى أن تصبح جوفاء بالفساد.

* * *

ومن شبه جزيرة العرب كان ينطلق إعصار. كان محمد قد هاجر من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢م. وكان قد انتصر على الوثنيين في موقعة بدر (رمضان سنة ٦٢٤) فدخل العرب في الدين الجديد أفواجًا أفواجًا.

ومن ذلك الحين حتى سنة ٦٣٢م. التي توفي فيها محمد تمّ توحيد الحجاز بعد أن ذُللت العقبات القائمة دون ذلك واحدةً إثر واحدة. وفي هذا العهد نشبت مناوشات كثيرة بين محمد واليهود بسبب من تآمر هؤلاء مع عدد من القبائل الوثنية عليه. وكان من نتائج ذلك أنْ مُزقت ثلاث عشائر يهودية ونُفيت من الحجاز.

وفيما كانت الأمبراطورية الرومانية الشرقية وبقايا رومة نفسها تحلم بالسلطان المستعاد كان محمد قد صهر العرب في شبه الجزيرة الكبرى في بوتقة إخاء جديد، ذلك بأن أوثق الروابط العربية كانت تقوم، من قبل، على أساس من القبيلة والعشيرة. فلما بزغ فجر الإسلام تسامت عقيدته فوق هذه النظرة الضيقة وأعلنت أن المسلمين كلهم أخوة. وفجأة نعمت بلاد العرب كلها لا بصلة نسب جديدة، وبإيمان جديد فحسب، بل بطريقة في الحياة جديدة بالكلية أيضًا. وليس في الإسلام هياكل مقدسة، ولا مذابح كنسية، ولا كهنوت. فالمسلمون يجتمعون في المساجد حيث يصلون ويتعلمون ويتناقشون. وأئمتهم رجالُ دين وقادة في وقت معًا. إنهم يعلّمون رعيتهم الفروسية، ويحاضرونهم في القرآن، وينفذون الشريعة المدنية كما نصّ عليها كتابهم المقدس؛ وفي غضون عشر سنوات ليس غير غدت العربية السعيدة، أو أرض الملوك، ثيوقراطية دينية كل الناس فيها متساوون، تحت راية الله.

وخلفَ النبيّ العربي، بعد وفاته، أبو بكر الصديق. وكانت حروب الردّة، ولكن أبا بكر وُفق إلى القضاء على الفتنة في سرعة بالغة. فلم ينقضِ عهده القصير (٦٣٢-٦٣٥) حتى غدا سيدًا على شبه الجزيرة كلها.

وبعد موت الخليفة الأول انطلق العرب إلى خارج الجزيرة، ففتحوا سورية والعراق وفارس ومصر وليبيا وأنشأوا قوة بحرية ذات شأن.

ثم إنهم اندفعوا، في اتجاه الشرق، إلى سمرقند، بل إلى حدود الصين. وغزوا الهند وأضافوا إلى أمبراطوريتهم باكستان الحالية وأفغانستان وجزءًا كبيرًا من كشمير. وفي اتجاه الغرب انطلق الفرسان العرب وقوات الاحتلال التي تقلها الأساطيل البحرية من ميناء قرطاجة (قرب تونس اليوم) وهبطوا أرض إسبانيا سنة ٧١١م. وغزا العرب فرنسا أيضًا، ولكنهم هزموا آخر الأمر في تُور، غيرَ بعيدٍ جدًا عن باريس، على يد ابنِ غير شرعي لـ«بيبين هيريستال» الزعيم الراينيّ يُدعى كارل، ومن ثمّ عُرفَ بشارل مارتل (شارل المطرقة).

ومن ذلك الحين ارتدت جيوش العرب والمسلمين، شيئًا بعد شيء، إلى إسبانيا. وحكم العرب تلك البلاد كلها، طوال قرون عدة باستثناء جزء صغير منها. وفي أواخر القرن الثامن كان الإسلام يسيطر على بحار العالم المعروف آنذاك وعلى شواطئ البحر الأبيض من أعمدة هرقل (جبل طارق) إلى الجبال العالية المتاخمة لبلاد التيبت. وكان العباسيون قد خلفوا الأمويين، وأقاموا عاصمتهم في بغداد.

ومنذ إنشاء بغداد، المدينة المدوّرة، سنة ٧٣٢ إلى منتصف القرن الثالث عشر، وعالم الثقافة متمركزٌ في الديار الإسلامية. ففي أيما مكان آخر من أوروبة وآسية لم يكن غير جثة «السِّلمْ الروماني» البالية. وفي الهند والصين، وفي مكسيكو وبيرو، تقاتلت فرق وطوائف وتفلسفت ثم خضعت لسلطان شعوب مجاورة تنزع إلى الحرب أكثر مما



تنزع إلى الفلسفة. أما في سمرقند وحلب، وفي دمشق وبغداد فنهضت الجامعات وأقبلت وفود الطلاب من الشرق ومن أوروبة ليدرسوا الفنون والعلوم التي ما كانت تُدرَّس في أيما مكان آخر.

* * *

وما الذي حلّ باليهود خلال هذه القرون؟ كان معظم الذين لم تتمثلهم الأمم الأخرى يقيمون في فلسطين. فقد كان الحكم البيزنطي أقلّ خشونة من الحكم الروماني، وكان عدد اليهود أقلّ من أن يساعدهم على تحدّي سلطان الدولة. وهكذا فُتحت أبواب أورشليم في وجوههم، كرةً أخرى، وانصرفوا إلى حراثة الأرض في قراهم، وبنوا عدة كُنُس واعتصموا بحبل السلم.

أما خارج فلسطين فإن اليهود المتناثرين الذين اتّبعوا غرائزهم التجارية وقصدوا إلى شواطئ أفريقية الشمالية فأقام بعضهم هناك ولحق بعضهم بالراية الإسلامية إلى إسبانيا والبرتغال. واستقرّ كثير من اليهود في بغداد حيث درس أولادهم مع الفرنجة والإيطاليين واليونان في جامعة «المستنصرية». في حين نزل آخرون ربوع اليمن وإيران والهند.

وفي الشمال كسبت اليهودية موطنًا جديدًا. ففي إمارة «كييف» القوطية القائمة على الدنيبر وعلى شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين كان برابرة الروسيا - المنهمكون حديثًا بتجارة ازدهرت سريعًا بعد أن سيطر المسلمون على الطرق التجارية بين الصين والهند والغرب - قد ضاقوا ذرعًا بأديانٍ ليس لها جذورٌ محلية.

وكانت إحدى هذه القبائل، الخزَر، تقيم في الشواطئ الغربية من بحر قزوين، وكانت ذات عَددٍ وبأس. وإذ كان المسلمون يحيطون بها من جانب (في فارس) والمسيحيون من جانب (في بيزنطة) فقد أبى زعماؤها أن يغضبوا أيًا من الفريقين. حتى إذا اكتشفوا ديانة ثالثة تدعى اليهودية اتخذوا من يهوه إلهًا لهم، وأعادوا تسمية رعاياهم الذكور وفقًا للنعوت والألقاب الواردة في التوراة.

وكان السلاف الكييفيون الخاضعون لسلطان فلاديمير بعيدين عن شقي الرحى - الهلال والصليب - حتى إذا كرهوا آلهتهم القديمة وملّوها لم يتعيَّن عليهم التزام الحَيْدة الكاملة. وتذهب الأخبار إلى أن جماعةً من الخزر الداخلين حديثًا في اليهودية، والذين انتهوا إلى أن يصبحوا حاخامين، وفدوا على كييف ليقنعوا السلاف باعتناق دين يهوه فسألهم الأمير الروسي:

«أين بلدكم؟»

فأجاب الحاخامون:

«أورشليم مدينتنا».

فقال فلاديمير:

«ولماذا لا تعيشون في مدينتكم؟»

وأوضح الأحبار أن إلههم يهوه غضب عليهم وطردهم من ديارهم وعندئذ قال فلاديمير إنه لا يستطيع أن يطلب إلى الشعب الروسي الإيمان بإله قد يفقد أعصابه في كل لحظة ويطردهم من أعظم وأغنى بلدٍ في العالم[١].

وإثر هذا الإخفاق أقبلت على كييف وفود إسلامية وبيزنطية. وأخيرًا اختار فلاديمير النصرانية دينًا لشعبه لأن امرأته، فيما يقال، كانت بيزنطية. وأيًّا ما كان فقد تقبّل أبناء كييف المتنصّرون حديثًا الصليبَ فدحرجوا تمثال «بيرون» (إله العواصف) الذهبي الفضيّ الضخم إلى نهر الدنيبر وألقوه في مياهه الموحلة.

وفي ما هو اليوم كازاكستان السوفياتية الغربية قدّر لليهود الخزر غير الساميين - وكانوا حتى قبل دخولهم دين يهوه قومًا عنيدين عدوانيين وتجارًا بارعين - أن ينتشروا في أوروبا، وأن يطالبوا آخر الأمر بفلسطين وطنًا قوميًا لهم، وهي أرض لم يعرفها أسلافهم القدماء

(١) Hyde, «Russia, Then and Always», 1944.



على الإطلاق.

وفي الوقت نفسه كانت الغيوم قد أخذت تتلبد فوق «دار الإسلام». ففي أوروبا حُوّل الصراع بين الكنيسة والدولة إلى حرب مقدسة ضد المسلمين المسيطرين على فلسطين. وإنما خاض نبلاء أوروبا غمار هذه الحرب بدافع من القلق والأمل في الغنيمة بقدر ما خاضوها بدافع من الحميّة الدينية، فغادروا بلدانهم وإقطاعاتهم ورهنوها في كثير من الأحوال لدى الكنيسة، ليحملوا الصليب ويفدوا إلى الأرض المقدسة. وهكذا نشبت حروب دامية باهظة النفقات لم يُفد منها أحد من الناحية المادية غير حاملي صكوك الرهن. ومن ناحية ثانية، كان لهذه الحروب فائدة كبيرة، لأن الصليبيين العائدين إلى أوروبا حملوا معهم أنماطًا من الثقافة عجلت بخروج الغربيين من دنيا القرون الوسطى.

ونكب العالم الإسلامي، بالإضافة إلى الحروب الصليبية (١٠٩٧-١٣٥٠) بالغزو المغولي. ففي سنة ١٢٥٨ حاصر هولاكو بغداد واستولى عليها بعد أن ذُبح ما يزيد على ثمانين ألف بغداديّ وقُتِل الخليفة العباسي. ومن سنة ١٢٦٠ إلى سنة ١٥٠٠ حكم المغول بغداد والعراق، ولكنهم كانوا قد غدوا مغولًا متعربين. وفي عام ١٥١٦ فتح العثمانيون خرائب «دار الإسلام». وعلى الرغم من دخولهم في الدين المحمدي لم يوفقوا إلى إعادة الثقافة الإسلامية إلى سابق مجدها. وطوال أربعمئة عام حُجب العرب، وحجبت علومهم وآدابهم، بدروع الأتراك - وهم شعب عمليّ يعوزه الخيال - الكثيفة القاسية.

وثار العرب غير مرة على الأتراك. ولا تكاد توجد مدينة عربية كبرى ليس فيها ساحة شهداء كانت المشانق التركية فيها وسيلةً سرمدية إلى إطالة أجل الحكم العثماني الفاسد. ولكن العرب لم يلمحوا بصيصًا من أمل إلا عند اندلاع نار الحرب العالمية الأولى. وعندئذ وجهت بريطانيا آثاريًا شابًا يدعى توماس لورانس - وكان الجيش قد

أبى قبوله لقصر قامته - لكي يراقب أعمال الفرسان العرب الذين كانوا يقضّون - تحت زعامة الأمير فيصل ابن الشريف حسين - مضاجع القوات التركية في الحجاز الغربي.

وأُعجب لورانس بالمعنوية العربية وأقنع الشريف حسين بالتحالف مع بريطانيا على أن تكفل هذه الأخيرة قيام دولة عربية مستقلة بعد الحرب. وكان لورانس خالي الذهن بالكلية، آنذاك، من اتفاقية سايكس بيكو السرية بين لندن وباريس، تلك الاتفاقية التي قسمت الأراضي العربية إلى منطقتي نفوذ إحداهما بريطانية والأخرى فرنسية. وطرد العربُ القواتِ التركية من فلسطين وسورية والعراق، تساعدهم في بعض الأحيان، قواتٌ بريطانية. ولكن ما إن اختار الشريف حسين ابنه فيصلًا لعرش سورية الكبرى في دمشق حتى كانت عصبة الأمم قد عهدت إلى فرنسا في الإشراف على سوريا ولبنان. وفي تموز ١٩٢٠ أخرج الجنرال غورو، المقطوع إحدى الذراعين، تدعمه الدبابات الفرنسية، القوات العربية من دمشق. أما فلسطين وشرقي الأردن والعراق فتولت بريطانيا الوصاية عليها.



## ٢. من نشوء الفكرة الصهيونية إلى دير ياسين...

ليس من العسير على المرء أن يفهم ذلك الوهم المنتشر أعظم انتشار بين اليهود وغيرهم والقائل بأن يهوه جعل أرض الميعاد «رهنًا» لجميع اليهود في العالم، سواء أكانوا يرقون آخر الأمر إلى العبرانيين أم لا. فبالنسبة إلى كثير من اليهود الواعين أحسن الوعي أصلهم الخزري مثلًا شجعت فكرة «الوطن الروحي» في فلسطين الوَهمَ الزاعم بأن لهم حقوقًا شرعية في تلك الديار. **والحقيقة الواضحة تحتم علينا القول بأن سيادة العبرانيين القصيرة على فلسطين لا تمنحهم من الحقوق فيها غير جزءٍ مما تمنحه سيادة العرب والفرس والرومان على الديار المقدسة من حقوق. بل إنها لا تمنحهم حقوقًا تتساوى وحقوق الصليبيين الأوروبيين أنفسهم. وإلى ذلك، فقد كان ثمة طبعًا حقيقة إضافية وهي أن فلسطين كانت آهلةً بالعرب العصريين الذين ترجع ملكيتهم للأرض إلى القرن السادس عشر. والواقع أن التنكّر الفجائي للحقوق الطبيعية وإخراج الشعب الذي يملك الأرض ويحرثها من دياره ليس إلا من عمل الساسة المتعودين التصرّف بما يملكه الآخرون**، واليهود الذين اكتسبوا تفكيرهم وأخلاقيتهم من الأحياء القذرة التي أقاموها لأنفسهم في أوروبة الشرقية. لأن اليهود هم الذين خلقوا الأحوال السائدة في أحيائهم الخاصة Ghettoes، لا أحد غيرهم.

وبدأت الحملة الصهيونيّة بنشاط يهودي نمسوي يدعى ثيودور هيرتزل، Herzel ولكنها شأنَ معظم الحركات لم تكن غير التنسيق الأخير لعدة محاولات سابقة.

ففي أواخر القرن التاسع عشر أعانَ يهوديّ ألماني يدعى البارون موريس دي هيرش Hirsch جمعيةَ الاتحاد الإسرائيلي العالمية (آليانس) في باريس والجمعية الإنكليزية اليهودية في لندن على إنشاء مستعمرات يهودية في كندا وجنوبي أفريقية وغيرهما. وكان من أنصار هذه الحركة الكولونيل غولد شميت Goldschmidt الذي اقترح إنشاء ميليشيا يهودية لاستعمار فلسطين.

ومهما يكن من أمر فإن ثيودور هيرتزل، الصحافي النمسوي، يُعتبر أبا الحركة الصهيونية الرئيسي، على الرغم من أن المحاولات لإنشاء دولٍ يهودية مستقلة خارج أوروبة لم تنقطع طوال قرون ثلاثة سبقت دعوته. ففي سنة ١٥٦٦ فاوض يهودي إسباني برتغالي (ولعله أن يكون ساميًا) يدعى دوم جوزيف ناسي Nasi السلطانَ العثماني لكي يمنحه أرضًا قرب بحيرة طبريا رجاة أن يجعل منها وطنًا قوميًا في المستقبل. وفي سنة ١٦٢٥ قدمت شركةُ جزائر الهند الغربية الهولندية مقاطعة كبيرة من جزيرة كورا كاوو إلى جماعة من اليهود الهولنديين ليعمروها ويستقروا فيها. وأنشأ أوليفر كرومويل مستعمرة يهودية في ما عُرِف بعدُ بمستعمرة سورينام الهولندية. وإنما كان على سبيل المقايضة بجزيرة مانهاتان، وهي واقعة تاريخية لا تخلو من سخرية!

وفي سنة ١٦٥٩ أنشأ الفرنسيون مستعمرة يهودية في كايين عاصمة غوييانا الفرنسية (أميركا الجنوبية). واقترح مارشال دو ساكس Marshall de Saxe الدونكيشوتي إقامة مملكة يهودية في أميركا الجنوبية. وأول محاولة جدية لإقامة مستعمرة يهودية في شمالي أميركا إنما جرت سنة ١٨٢٥ عندما اشترى رجل يُعرف بالمايجور نوح Noah جزيرة كبيرة في نهر نياغارا وأقام فيها مع اليهود. ولكن أيًا من هذه التجارب لم تحظ بالنجاح، فهي تعمر بضع سنوات ثم تُمنى بالإفلاس فتخفق.

وكان هيرتزل قد اقترح في كرّاسٍ نشره بعنوان «الدولة اليهودية» أن تُنشأ دولة في فلسطين لا تورث سكانَ تلك البلاد ضررًا ما، وأن تكون



الأماكن المقدسة كلها منطقة دولية بحيث يتمكن الناس على اختلاف جنسياتهم من زيارتها. كذلك اقترح أن تدفع تلك الدولة الجزية سنويًا إلى السلطان العثماني. ولكنه توفي قبل أن يحقق شيئًا من ذلك.

**ومنذ الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧، عندما كتب مستر آرثر بلفور رسالته الشهيرة إلى لورد روتشيلد، والتي تعرف اليوم بتصريح بلفور، خطا الصهيونيون خطوات واسعة، فوق جثث المبادئ والضحايا البشرية العديدة، من أجل تحقيق ذلك الوعد الشفهي المزعوم الصادر عن رب اليهود، يهوه، لزعيمهم موسى.**

وكان عام ١٨٨١ عام «الخروج» إلى الولايات المتحدة. فبين عامي ١٨٨١ و١٩٢٩ هاجر ٢,٨٨٥,٠٠٠ يهودي من أوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة. وفي ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٥٠ سُمح لأربعة ملايين يهودي آخرين بدخول الولايات المتحدة. وهذه الأرقام ذات دلالة خاصة. ذلك بأن التقدير الإحصائي الذي أجري، عام ١٨٨٠، أظهر أن مجموع اليهود في العالم، من غربيين وشرقيين، يبلغ ٧,٦٦٣,٠٠٠ وأن ٥,٧٢٦,٠٠٠ منهم كانوا يعيشون في الروسيا، وبولندة، وغاليسيا، ورومانيا.

وفي الوقت الحاضر يوجد نحو من سبعة ملايين يهودي في الولايات المتحدة، ومليون في أوروبا، ومليون وأربعمئة ألف في إسرائيل، وحوالى مليون ونصف منتشرين في سائر أرجاء العالم. وإذا صحّ أن معتقلات هتلر قضت على ستة ملايين يهودي - كما يزعمون - كان معنى ذلك أن عدد اليهود زاد بنسبة ٢٤٠٪ خلال خمسين عامًا.

**وفي مطلع القرن العشرين لم يكن في فلسطين غير خمسة آلاف يهودي، وكانوا يملكون ٩٥٠٠٠ أكر[1] من الأرض** وكانوا، شأنهم

(١) الأكر فدان مساحته ٤٣,٥٦ قدمًا مربعًا (٤,٨٤٠ ياردة مربعة) أو نحو أربعة أعشار الهكتار. [المعرب]

اليوم، يعتمدون اعتمادًا شبه كلّيّ على الهبات التي تردهم من يهود أميركا وأوروبا.

وأيًا ما كان، فليس من ريب في أن رسالة آرثر بلفور، رئيس الوزراء البريطاني، (٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧) كانت هي مُنْطَلَقَ الكارثة الحاضرة. ولكن حتى هذا التصريح منح العرب أيضًا، في نصه الأصلي، حماية كاملة، حيث قال:

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتحقيق هذه الغاية، مع البيان الجلي بأنه لن يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن، أو الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

ولو أن اليهود الذين أفادوا من هذا النصّ التزموه التزامًا صحيحًا إذن لما وقعت الحرب الفلسطينية. ولكن السير هيربرت صموئيل، وزير الداخلية اليهودي في حكومة بلفور والمفوض السامي في فلسطين بعد ذلك، أعاد كتابة تصريح بلفور من جديد حاذفًا العبارة التي تصون حقوق «الطوائف غير اليهودية» وقاصرًا الهجرة اليهودية على مجرد قدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين. وفي الحال غدت القدرة الاقتصادية على الاستيعاب رهنًا بمحافظ الأموال اليهودية في أوروبا والولايات المتحدة، وبذلك طُمس على القسم الأخير من تصريح بلفور الذي يشير إلى اليهود في البلدان الأخرى.

ولعل أول نتائج تصريح بلفور إنشاء «الفرقة اليهودية» التي قاتلت مع الأوستراليين في منطقة القدس ضد الأتراك العثمانيين. وقد وطئ أفرادها أرض فلسطين، عام ١٩١٨، فشكلوا الأساس الأول لعصابة شتيرن ودشنوا عهدًا من الإرهاب حمل العرب - الذين ذُعروا لهذا الغزو ولموقف الانتداب الذي يمثله سير هيربرت صموئيل - على أن يشرعوا في بيع أراضيهم بأيّ ثمن. وطوال سنتين أو يزيد، ومن خلال



برامج مدروسة من الوعيد والضغط استولى المهاجرون اليهود على الأراضي العربية بجزء من الثمن الذي تستحقه. ولم تقف هذه الحركة الانهزامية إلا بعد أن نُظمت المقاومة العربية سنة ١٩٢٠.

وكان مما ساعد على وقفها أيضًا تصريح لونستون تشرشل، سنة ١٩٢٢، جاء فيه: «.. إن أحكام تصريح بلفور لا تفيد أن فلسطين كلها سوف تُحوّل إلى وطن قوميّ يهودي، ولكن تفيد أن مثل هذا الوطن سوف **يُنشأ في فلسطين**».

ويجب أن نذكر أنه كانت قد نشأت في هذه الفترة من الأزمة والحرج دولة عربية في سورية - وعدَ بإقامتها البريطانيون أيضًا - ولكنها ما لبثت أن هوجمت وقُوّضت أركانها من جانب الفرنسيين الذين فازوا، وفقًا لأحكام اتفاقية سايكس بيكو السرية، بالانتداب على سورية ولبنان مقابل وضع فلسطين وشرقي الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني. وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الخيانة أن عصف بالعرب عاصفٌ من اضطراب. ولم يكن في سياسة سير صموئيل هيربرت ما يساعد على التخفيف من حدة التوتر. ومن هنا نشبت القلائل.

ومن سنة ١٩٢١ ساءت الحال في فلسطين على نحوٍ مطرد حتى اندلعت نار الثورة سنة ١٩٣٦. وإذا جاز لنا أن نقول إن العرب ليسوا غير ملومين بالكلية فليس من شك في أن السياسات المحيِّرة التي اتبعتها الحكومة البريطانية ومفوضوها السامون - وبعضها يناقض بعضها الآخر - ينبغي أن تُعتبر هي المسؤولة عن ذلك في المحل الأول. لقد غدت فلسطين لعبةً يعبث بها البريطانيين واليهود وأصدقاؤهم. وتعاقبت النظريات والاتجاهات، وليس في أيٍّ منها ما يأخذ مصالح العرب بعين الاعتبار.

وفي هذه الفترة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية شنت «عصابة شترن» و«إرغون تسفاي ليومي» - وكلتاهما منظمة عسكرية غير

شرعية - الحربَ على العرب والبريطانيين جميعًا، في ضراوة كانت نذيرًا واضحًا بالأحداث التي سوف تقع.

وتعاظمت المقاومة العربية للتوسع الصيهوني تعاظمًا مطردًا. فبعد أن اتضح للزعماء المسلمين الفلسطينيين أن بريطانيا لن تقوى على صيانة مصالح العرب التي كفلها تصريح بلفور، شرعوا ينظمون قواهم ويواجهون العصابات الصهيونية الغازية بنيران البنادق والكمون لها ههنا وههناك. وأخيرًا وفد على فلسطين، سنة ١٩٣٦، خبير في شؤون الحرب المكشوفة اسمه فوزي القاوقجي - وهو لبناني درس الفنون العسكرية في ألمانيا - وقاد قوةً عربية كانت تناضل ضد الجيوش الصهيونية. وكان من نكد طالع فوزي - ولعلّ مردّ ذلك إلى فعاليته الفائقة - أنه انساق إلى الاشتباك بالبريطانيين. وعلى الرغم من حرب العصابات التي شنوها ثلاث سنوات مُني الفلسطينيون العرب آخر الأمر بالهزيمة. ثم إن فوزي برز بعد ذلك على مسرح الثورة الصغيرة التي أعلنها رشيد عالي الكيلاني على البريطانيين سنة ١٩٤١. وجائز أن يكون رشيد عالي قد تلقى من المحور بعض المساعدات المالية. وقد ارتضى على أيّ حال عونًا محدودًا من سلاح الطيران الألماني (لوفتواف) الذي كان يحتل آنذاك المطارات السورية ولكن ذلك العون لم يكن كافيًا، فما هي إلا فترة يسيرة حتى أُخمدت الثورة العراقية على يد الجيش العربي الأردني وبعض القوات البريطانية المجهزة بالدبابات. ثم إن هذه القوة العربية البريطانية اصطُنعت في ما بعد لشلّ جيشٍ سوري صغير كان يخضع لسلطان فيشي.

ووضعت الحرب العالمية الثانية حدًّا موقتًا لأعمال العنف في فلسطين. وكان شعار الصهاينة جليًّا: إنهم «سوف يخوضون الحرب وكأن ليس ثمة كتابٌ أبيض، ويحاربون الكتاب الأبيض وكأن ليس ثمة حرب». ولم يكن «الكتاب الأبيض» هذا غير محاولة بريطانيةٍ لجلاء ما انتهى إلى أن يصبح، الآن، وضعًا مشوّشًا إلى حدّ يوقع اليأس في



النفوس. ذلك بأن لندن كانت قد نفخت على الهجرة اليهودية ريحًا ساخنة حينًا، باردة حينًا آخر، إلى أن صار في فلسطين عدد من اليهود يتعذر معه العيش في سلام مع العرب إلا من طريق طرد اليهود الذين دخلوا البلاد على نحو غير شرعي، واستولوا بطريقة شرعية أو غير شرعية على الأراضي العربية.

وهكذا نشرت الحكومة البريطانية، في نوار سنة ١٩٣٩ كتابًا أبيض لم يزد المشكلة إلا تعقيدًا. وإنما قُصِد بهذه الوثيقة، في الأساس، إلى إعادة الثقة إلى نفوس العرب. فنصّت على أنه سوف تُنشأ بعد عشر سنوات، دولة فلسطينية دستورية مستقلة تطمئن معها قلوب العرب إلى أن الهجرة اليهودية الموصولة ستعدّل على نحوٍ لا يجعل من العرب، في المستقبل، أقلية في البلاد. ووفقًا لذلك:

«أ» فلن يسمح خلال السنوات الخمس التالية لأكثر من خمسة وسبعين ألف يهودي بالدخول إلى فلسطين. وبعدها لن تكون هجرة يهودية إلى البلاد إلا برضا العرب.

«ب» ويحرم شراء اليهود للأراضي في بعض المناطق، ويحدد في بعضها الآخر.

وأقرّ الكتاب الأبيض بأن إطلاق العنان للهجرة اليهودية غير المحدودة خليق به أن يؤدي إلى طغيان اليهود على العرب، وهو وضع يتناقض مع تصريح بلفور، وعهود بريطانيا الخاصة للعرب، ومع المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم.

وفي بريطانيا والولايات المتحدة أدى نشر الكتاب الأبيض إلى حملة خطابية تهديدية شنّها الصهيونيون البارزون، على حين شجع «عصابة شترن» و«إرغون تسفاي ليومي» - في فلسطين - على استئناف العدوان. وكان اندلاع نار الحرب العالمية في أيلول قد حمل إلى الديار المقدسة - كما قلنا آنفًا - سلامًا محمومًا، ولكنه نسبيّ، بعد أن تهدّدت قوات المحور التي احتلت لبنان وسورية يهودَ فلسطين بخطرٍ

جسيم دونه الخطر العربي أو الخطر البريطاني.

ولكن انتهاء الحرب ضد ألمانيا، سنة ١٩٤٥، جدّد الضغط اليهودي في فلسطين، وفي لندن، وفي واشنطن. **واستُغِلَّ انجراف الرئيس هاري ترومان مع التيار الصهيوني استغلالًا بالغًا إلى حد جعل مسألة إنشاء دولة يهودية في فلسطين تُقدَّم على كثير من المشكلات الأميركية والدولية الكبرى التي تهمّ الولايات المتحدة أكثر مما تهمها المشكلة الصهيونية بما لا يقاس.** وأخيرًا، وبعد إلحاف شديد من واشنطن أُلفت لجنة إنكليزية أميركية للتحقيق في المشكلة الفلسطينية. وكانت أعمال العنف قد استؤنفت، حتى قبل أن تستسلم ألمانيا، وكان الإرهابيون اليهود قد صرعوا لورد موين في القاهرة، عام ١٩٤٤، وقاموا بأعمال عديدة من التقتيل والتحريق في حيفا ويافا والقدس. وفي عام ١٩٤٥ أطلق اليهود موجةً من الإرهاب - من طريق الاغتيالات وإلقاء القنابل وغيرهما - جعلت من الواضح، حتى في واشنطن نفسها، أن للقضية وجهةً عربية. وكأنما أراد اليهود أن يؤكدوا على هذه الحقيقة التي تتناساها الحكومة الأميركية فنسفوا مقرّ الشرطة العام في القدس مُهلكين بذلك عددًا من البريطانيين والعرب، وعددًا من اليهود في وقت معًا.

وفي كانون الأول ١٩٤٥ وصلت إلى فلسطين لجنة اثنا عشرية بريطانية أميركية لدرس القضية وانصرفت إلى جمع الحقائق التي تمكنها من إبداء رأيها. وقد نشرت هذه اللجنة تقريرها في نيسان ١٩٤٦.

وفي الوقت نفسه كان نشاط المنظمات الصهيونية المتكاثف، في الولايات المتحدة، قد أدى إلى خلق منظمات غير شرعية في أوروبة مهمتها اختيار الشبان اليهود ذوي الأجساد السليمة وترحيلهم إلى فلسطين ابتغاء تعزيز الجيوش اليهودية التي كانت قد أنشئت قبل ذلك هناك. وإنما كشف عن هذا البرنامج - الذي نهض جماعة من المواطنين الأميركيين بكامل نفقاته والذي نفذه نفرٌ من الضباط في



الجيش الأميركي - الجنرال مورغان، مدير هيئة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة في ألمانيا. وكانت النتيجة الوحيدة لهذا الكشف إبعاد الجنرال مورغان من منصبه. أما عملية الترحيل فظلت قائمة على قدم وساق، من غير أن تُمسّ.

وأيًا ما كان، فقد اشتمل تقرير اللجنة البريطانية الأميركية على ما يلي:

«أ» إن ثمة، في الوقت الحاضر، حظوظًا قليلة في إيواء عدد من المهاجرين اليهود، بالغًا ما بلغ، في غير فلسطين. ولكن فلسطين وحدها لا تستطيع أن تنهض بالعبء كله. من أجل ذلك يتعين على الحكومتين (بريطانيا والولايات المتحدة) أن تسعيا، بمعاونة البلدان الأخرى، لإيجاد مواطن جديدة للمهاجرين اليهود حيثما دعت الحاجة، وأن تبذلا جهدهما لضمان الحريات لأولئك اليهود الذين يؤثرون البقاء في أوروبة.

«ب». يجب أن يرخص، في الحال، لمئة ألف من اليهود ضحايا الاضطهاد النازي والفاشستي بالدخول إلى فلسطين. وينبغي أن يتم ترحيل هؤلاء بأسرع ما تسمح الأحوال في ذلك.

«ج». يجب أن يصدر نص صريح في ما يتصل بمستقبل فلسطين السياسي، مؤداه أن اليهود لن يطغوا على العرب، وأن العرب لن يطغوا على اليهود في فلسطين. وأن فلسطين لن تكون لا دولة يهودية ولا دولة عربية. وأن فلسطين يجب أن تصبح آخر الأمر دولة تحكم نفسها بنفسها وتكفل حقوق المسلمين واليهود والنصارى على السواء.

«د». إن إنشاء دولة أو دول مستقلة الآن جدير به أن يؤدي إلى فتنة داخلية قد تهدد سلام العالم. وإذن، فإلى أن يزول الخلاف العربي اليهودي يتعين على حكومة فلسطين أن تحافظ على شكلها الانتدابي ريثما تخضع لوصاية هيئة الأمم المتحدة.

«هـ». يجب على حكومة الانتداب أو الوصاية أن تعلن هذا المبدأ: وهو أن تقدم العرب الاقتصادي والثقافي والسياسي، في فلسطين، يهمها بقدر ما يهمها تقدم اليهود في هذه الميادين. وأن تتخذ في الحال الإجراءات الكفيلة برفع مستوى المعيشة العربية إلى المستوى اليهودي. (يجب أن يذكر هنا أن الحاخام ريفوسكي

Revuski اتهم اليهود بأنهم يعاملون أُجراءهم من العرب معاملة العبيد الأرقاء).

«د». يجب أن تبطل قوانين ١٩٤٠ الخاصة بانتقال الأراضي بحيث تطلق الحرية لليهود في اكتساب الأراضي العربية. أما الأماكن المقدسة «فينبغي أن تصان من التدنيس».

«و». إن برامج التطور الاقتصادي الضخمة لا يمكن أن تنجح في فلسطين من غير رضا أبنائها من العرب وتعاون الدول العربية المجاورة. وهذه البرامج ينبغي أن تدرس وتنفذ لا بالتشاور الكامل مع الوكالة اليهودية (في فلسطين) وحسب، ولكن مع حكومات الدول العربية المجاورة أيضًا.

«ز». يجب أن يوضح بأجلى بيان لكل من اليهود والعرب أن أيما محاولة من جانب أي من الفريقين للحؤول دون تنفيذ هذا التقرير، سواء بالتهديد باستعمال العنف أو الإرهاب أو بتنظيم أو اصطناع الجيوش غير الشرعية، سوف تقمع في حزم. ويتعين على الوكالة اليهودية أن تستأنف في الحال التعاون الفعال مع حكومة الانتداب لوقف الإرهاب والهجرة غير الشرعية، وفي إقرار النظام والقانون في طول فلسطين وعرضها.

ولم يستقبل أيّ من العرب أو اليهود هذا التقرير استقبالًا حسنًا. فقد شجب العرب الهجرة والتوصيات الخاصة ببيع الأراضي بوصفها نقضًا لحق تقرير المصير (كان العرب لا يزالون يشكلون الغالبية الكبرى من السكان آنذاك)، وللوعود والعهود البريطانية كلها، ولميثاق الأطلسي ولغيره من البيانات التي كان الحلفاء قد أذاعوها عن أهدافهم من الحرب. وأضربت الأسواق والمدن العربية، وعُزّزت المقاطعة العربية للبضائع والخدمات اليهودية تعزيزًا كثيرًا.

أما اليهود فلم يُرضهم من التقرير غير ما نصّ عليه من وجوب إدخال مئة ألف مهاجر جديد إلى فلسطين. أما سائره فشجبوه ورفضوه. لقد دافعوا عن جيوشهم غير الشرعية ورفضوا التعاون مع السلطة المنتدبة لكبت الإرهاب. ثم شنوا حملة عنيفة من الإرهاب ضدّ البريطانيين في المحل الأول. حتى إذا أرسل الرئيس ترومان، في غير ما ضجة، جماعة من الموظفين يمثلون لجنته الوزارية لشؤون فلسطين



ليناقشوا رئيس الوزراء، أتلي، في الأمر رفعت «عصابة شترن» حرارة حملتها وزادتها ضراوة. ففي ١٦ حزيران نُسفت ثمانية من جسور سكة حديد فلسطين المركزية وإحدى ورش العمل، وإنما أصيبت الورشة بذلك بسبب من انفجارٍ وقع قبل أوانه وذهب ضحيته ثمانية عشر إرهابيًا وضابط بريطاني واحد. وصُدّت السفن الموسوقة بالمهاجرين غير الشرعيين عن سبيلها واحتُجزت في قبرص، في حين اختُطِف عددٌ من الضباط البريطانيين لمّا يُكشف النقاب عنه، واتُّخذوا رهائن وجُلدوا بالسياط. ليس هذا فحسب، بل إن عددًا من الجنود البريطانيين الذين قبلوا دعوات اليهود إلى زيارتهم وُجدوا في ما بعد موتى بالسمّ، أو بطعنات السكاكين. وفي ثلاثة اشهر صُرع ستة عشر ضابطًا بريطانيًا، في جملتهم أولئك الذين سُمّموا في تل أبيب. وفي ٢٢ تموز سنة ١٩٤٦ نُسِف فندق الملك داود، مقر القيادة العامة البريطانية، بقنابل الإرهابيين اليهود، فقُتِل مئة وستة أشخاص، وجرح ستة وأربعون.

وفي سنة ١٩٤٧ تعاظمت موجة الإرهاب اليهودي أكثر فأكثر. فخطفت العصابات اليهودية الجنود البريطانيين وجلدتهم أو قتلتهم. وأوقع اليهود بثلاثة من أولئك الجند ثم شدّوهم إلى الأشجار وراحوا يطعنونهم بالحراب، ثم وضعوا القنابل اليدوية داخل قمصانهم. وحوالى هذه الفترة بالذات نُشر إعلان «بن هشت» في الصحف الأميركية معلنًا أنه كلما قُتِل جندي بريطاني أو ذُبح رجل عربيّ «أقام يهود أميركا عيدًا صغيرًا في قلوبهم».

وخلال عام ١٩٤٧ ضاعف اليهود نشاطهم في ميدان السلب والنهب. فسرقوا الأسلحة والذخائر من مستودعات الجيش، بل سرقوا حتى دبابات شيرمان التي قُدمت إلى البريطانيين أثناء الحرب العالمية الثانية بموجب قانون الإعارة والتأجير. وقد لعبت اثنتان من هذه الدبابات دورًا بارزًا في الحملة الإرهابية التي شنّها اليهود على المزارعين العرب وعائلاتهم.

وأخفق عَرْضان أخيران قدمتهما الحكومة البيرطانية لحلّ قضية فلسطين (وقد عُرف أحدهما بمشروع موريسون). وفي ١٨ شباط ١٩٤٧ أعلن البريطانيون عجزهم عن الوصول إلى حلٍّ يرضي الفريقين جميعًا، وأحالوا المشكلة الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. فعينت جلسة خاصة لدراستها في شهر نيسان.

وكان الإرهابيون قد واصلوا، في الوقت نفسه، أعمال العنف. فأُخرجت القُطُر الحديدية عن خطوطها، وقُتل مئات وجُرح مثلهم. وفي ١٧ آذار نسف اليهود نادي غولدسمث الخاص بالضباط فقُتل عشرون ضابطًا بريطانيًا وجُرح ستة وعشرون. وأخيرًا فرض الإنكليز الأحكام العرفية وقبضوا على مئة وثمانية وعشرين إرهابيًا، وحكموا على ثمانية وعشرين منهم بالموت، ولكن أربعة من هؤلاء نُفِّذَ فيهم الحكم ليس غير. أما الباقون فاستبدل بحكم الموت الصادر ضدهم السجن مدى الحياة، ثم أُطلق سراحهم في الحال بعد ١٥ نوار سنة ١٩٤٨ عندما أصبحت إسرائل، رسميًا، دولة مستقلة.

وبعد أيام قليلة انقضت على إحالة الحكومة البريطانية المشكلة الفلسطينية برمتها إلى الأمم المتحدة، برّر إيرنست بيفن وزير الخارجية البريطاني هذا التصرف أمام مجلس العموم فقال:

«... لو كان الأمر قاصرًا على مسألة المئة ألف مهاجر لكان في ميسورنا، في ما أعتقد، أن نوجد لهم مأوى. أجل، كان في الميسور إيجاد هذا المأوى لو كان عليَّ أن أحلَّ المشكلة الإنسانية الخالصة ليس غير. ولكن ليس هذا هو الوضع مع الأسف. فمن وجهة النظر الصهيونية ليس المئة ألف غير بداءة، والوكالة اليهودية تتحدث بلغة الملايين، وأحسب أن من المستطاع إقناع العرب بقبول مئة ألف مهاجر جديد، بطريقة منظمة، وعلى أسس إنسانية[1]، نظرًا إلى الحالة

(١) صرح لي كثير من زعماء العرب بأن مثل هذا الطلب كان خليقًا بأن يقبل.



الأوروبية، لو تُرك أمر الهجرة في ما بعد - وأنا أؤكد على هذا - إلى ممثلي الشعب الفلسطيني المنتخبين.

«وعندي أن مطلب العرب هذا مشروع، ومفحم. فههنا في بريطانيا العظمى، نقرر نحن بوصفنا مجلسًا للعموم ما إذا كان للناس أن يدخلوا إلى بلادنا أم لا. وليس أحدٌ غيرنا يتمتع بهذه الصلاحية. فكيف يُسمح لوكالة خارجية، تمولها في المحل الأول هيئات أميركيّة، أن تقرّر عدد الأشخاص الذين ينبغي أن يدخلوا إلى فلسطين، وأن يتدخلوا في حياة العرب الاقتصادية وهم الذي قطنوا تلك الديار منذ ألفي سنة؟».

وبعثت هيئة الأمم المتحدة لجنةً لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وكان التشويش والاختلاط اللذان نشآ عن ذلك من الطراز الأول. فقد قسّمت فلسطين إلى مناطق لا رابط بينها ولا اتصال، بعضها للعرب وبعضها لليهود. والواقع أن الثمرة الأخيرة لهذا التقسيم أشبهت كما قال جيمس باركز، البريطاني اليهودي الهوى، بيوت الشطرنج المتعاقبة. ولعل ذلك الحلّ أن يكون أسخف الحلول التي يمكن اقتراحها وأكثرها استعصاء على التطبيق. وفي استطاعة المرء أن يتصور وقعه في نفوس الأذكياء من العرب واليهود على السواء. وليس من ريب في أن كلًا من الفريقين قد انتهى إلى الشعور بأن المستقبل رهنٌ بما يستطيعون هم تحقيقه لأنفسهم.

ولم يكن في ذلك شيء جديد، بالنسبة إلى الإرهابيين اليهود. ذلك بأنهم كانوا خارجين على العدالة منذ ١٩٤٤ وكان عندهم سلاح، بل لقد كان عندهم مصفحات، وخبرة كبيرة في صناعة القتل. وفي أوائل عام ١٩٤٨ وضعوا خطة العمل. وعينت الأمم المتحدة بالاتفاق مع بريطانيا العظمى، يوم الخامس عشر من نوار موعدًا لانتهاء الانتداب البريطاني وإقامة دولة إسرائيل المستقلة على أساسٍ من التقسيم الجغرافي العجيب الذي اقترحته لجنة الأمم المتحدة.

وكانت لـ«عصابة شترن» والـ«أرغون تسفاي ليومي» آراؤهما الخاصة في تعديل الحدود المقترحة. فاعتزمتا ترويع العرب، من طريق شنّ حملات منظمة على القرى الزراعية العربية، وإكراههم على التخلي عنها لليهود. والواقع أن هذه الخطة، التي عُرفت في الأوساط غير الرسمية باسم «عملية الذعر»، دُرست أحسن الدرس، ونفّذت بأشد الحماسة، واقترنت بأعظم النجاح، فلم ينتصف شهر نوار حتى كان نصف مليون عربي ممن نجوا من المذابح المتعاقبة يفرون بأنفسهم، مروَّعين مذعورين، إلى صحارى شرقيّ الأردن وسورية والعربية السعودية، لأنه كان على اليهود أن يذبحوا سكان بضع قرى ليس غير ثم تتولى محطة إذاعتهم الباقي. وتفصيل ذلك أن الراديو اليهودي كان يتباهى بتدمير القرى العربية وذبح سكانها ذبحًا إجماعيًا ثم يحذّر العرب قائلًا: «إن عليهم أن يدركوا حين يرون دبابات إسرائيل وجندها في الطريق إليهم أن المصير نفسه ينتظر قريتهم».

وينبغي أن نكرّر أن هذه المجازر لم تكن عفوية ولكن مبيّتة مدروسة. ففي الصحيفة الناطقة بلسان عصابة شترن - جريدة هاماشكيف Hamashkif - نص المسؤولون في المنظمة على أن خططهم عُرضت على القيادة العسكرية اليهودية واقترنت بموافقتها. وفي سنة ١٩٥٠ نهض إرغونيّ سابق في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) واتهم دافيد بن غوريون بأنه هو نفسه الذي اقترح «عملية الذعر» هذه. وأيًا ما كان فإن سلسلة موصولة من المذابح تُسفك فيها دماء القرويين العرب العزّل من السلاح طوال أسبوع كامل لا يمكن أن تتم من غير موافقة ضمنية رسمية من المسؤولين في تل أبيب.

وكانت دير ياسين أول نصر أحرزته الأرغون. ففي الصباح الباكر من ٩ نيسان سنة ١٩٤٨، حين كان المزارعون العرب وأفراد أُسرهم ينصبون خيامهم في سوق القرية، اقتحمت دبابتان من طراز شيرمان طرق دير ياسين الضيقة وسحقتا فلاحَيْن متعبَيْن كانا نائمين قرب عتبتَيْ



بيتيهما. وكان يصحب الدبابتين قوة من اليهود يبلغ عددها خمسمئة رجل مزوّدين بمدافع التومي والأسلحة الأوتوماتيكية الفتاكة.

ولقد صرّحت القلة القليلة التي بقيت على قيد الحياة من أبناء دير ياسين - **ومعظمها من النساء اللواتي سُلبن كل ما عندهن ومُزقت أثوابهن تمزيقًا، واللواتي استعرضهن اليهود في شوارع تل أبيب في سيارات كبيرة قبل أن يسلموهن بالرغم منهم إلى الصليب الأحمر الدولي** - أقول صرحت هذه القلة القليلة التي لم تأتِ عليها فظائع اليهود في دير ياسين أن الدبابتين اقتحمتا سوق القرية وأطلقتا نيران المدافع الأوتوماتيكة على الأهلين المحتشدين في السّاحة.

**وبعد أن أطلقت الدبابتان نيرانهما تعقب الجنود الإسرائيليون أهل القرية الفارّين بأنفسهم، وقتلوهم في غير ما استبقاء بينما كانوا يهربون أو يختبئون في الطرق أو في منازلهم.** وفي دير ياسين تكرّرت مشاهد أريحا التي وصفها الكتاب المقدس بقوله: «وقتلوا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحدّ السيف»[1]. **وما من أحد يدري عدد ضحايا المذبحة، على وجه الضبط، ولكن الأمر الثابت أن الذين نجوا من الموت، من أبناء دير ياسين، يقلون عن الثلاثين شخصًا.**

وكانت بعض الفظائع التي تلت تتطلب شيئًا من الخيال. فقد جمع **الغزاة خمسًا وعشرين امرأة حاملًا، ووضعوهن في صف طويل ثم أطلقوا عليهن النار. ثم إنهم بقروا بطونهن بالمدى أو بالحراب وأخرجوا الأجنة منها نصف إخراج. وقُطّع الأطفال إربًا إربًا أمام أعين آبائهم الذين ما زالوا على قيد الحياة. وخُصي الصبية الصغار قبل أن يقتلوا. وانتزعت الحلى والخواتم من أجساد القتلى. وبترت أصابع الضحايا الذين وجد المعتدون عسرًا في انتزاع خواتمهم.**

(١) يشوع، الإصحاح السادس، آية ٢١.

وطلب جاك دو رينييه، مندوب الصليب الأحمر الدولي، الأذن من الوكالة اليهودية في الدخول إلى دير ياسين. ولكن الوكالة لم تسمح له في ذلك إلا بعد انقضاء ثمان وعشرين ساعة لكي تتيح للإرغونيين فرصة يستطيعون خلالها إخفاء معالم الجريمة. **وهكذا ألقي نحو من مئتي جثة من جثث القتلى في بئر عتيقة وغطيت بالقذر والأوساخ. ولكن الرائحة النتنة فضحتهم، وتمكن المندوب البلجيكي من أن يحصي الجثث بعد إخراجها من البئر، بيد أن كثيرًا من الأجساد لم تكن كاملة.** وتحدث دو رينييه، في شيء من الاشمئزاز، عن الأشياء التي شاهدها وروى كيف أنه وجد فتاة عربية في السادسة من عمرها لا تزال حية تحت ركام من الأجساد، وكيف أنه حملها إلى المستشفى وعلق على هذا بقوله: «كان ذلك، بكل بساطة، شيئًا فظيعًا».

لقد حاول بعض الصهيونيين الأميركيين أن ينكروا، في حنق وثورة، أن تكون مذبحة دير ياسين قد وقعت في يوم من الأيام... زاعمين أنها مجرد «دعاية عربية شريرة». وليس في استطاعة أبناء دير ياسين أن يجيبوا عن ذلك، فهم صامتون. ولكنّ ثمة الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان عصابة شترن، والمسماة «ميفراك» Mivrak. ففي ٧ أيلول سنة ١٩٤٨ كتب دانيال دولوس إلى صحيفة «واشنطن ستار» يقول:

«لا نزال نجهل إلى أي مدى يمكن لأفراد الأرغون وشترن أن ينسقوا جهودهم في ما يتصل بشرقي الأردن. والواقع أن جهدهم المشترك الأكثر شهرةً يتمثل في ذلك الهجوم الليلي الذي شنوه على قرية دير ياسين قرب القدس، في الربيع الماضي. وقد صرّح ناطقون باسم شترن في مؤتمر صحفي بأن ما يزيد على مئتين وخمسين قرويًا عربيًا ذُبحوا هناك، أكثر من نصفهم نساء وأطفال.

«وتشير شترن (عصابة شترن) في اعتزاز وفخر إلى دير ياسين ابتغاء الحصول على أكبر عدد ممكن من الأصوات في المعركة الانتخابية. فقد نشرت جريدة «ميفراك» الناطقة بلسان شترن افتتاحية



جاء فيها قولها: «إن كل امرئ يعرف أن الهجوم على دير ياسين هو الذي أوقع الرعب في قلوب الجماهير العربية وأدى إلى فرارها المذعور - هو المعجزة المباركة التي قوّت عزائمنا وأنزلت بالعدو ضربةً أعظم بكثير مما كان يمكن لحكمة جميع قواد الهاغانا مجتمعةً أن تصنعه... ونحن نرجو أن لا تُسفح دموع التماسيح، بعد اليوم، على فظائع دير ياسين».

ولم تكن دير ياسين غير بداءة واستهلال. **ففي اليوم الرابع عشر من نيسان تكرر المشهد في قرية نصر الدين. وفي الخامس من نوار هاجم الهاغانا (جيش إسرائيل الرسمي) عددًا من القرى القائمة على ضفاف الأردن قرب القرية المعروفة باسم بيت الخوري. وفي هذا الهجوم قتل مئات من العرب** (ونحن نجهل الرقم الدقيق لصرعى الهجوم لأن عددًا كبيرًا من الضحايا ألقي به في المستنقعات وفي مياه النهر) **وجرح ما يزيد على ألف ومئتين. ومُثل بالضحايا - رجالًا ونساء وأطفالًا - قبل الموت وبعده. وقطعت رؤوس عدد من الرجال بسبب من أنهم أبدوا بعض المقاومة، على ما يظهر. ولا تزال قلة قليلة تمثل الناجين من تلك المذبحة تحمل آثارها المشؤومة: أيادي مقطوعة، أو أرجلًا مبتورة. أما الناجون بأنفسهم والذين كان لا يزال في مقدورهم أن يسيروا على أقدامهم أو يصطنعوا أوصالهم في السباحة فقد فرّوا إلى سورية.**

وفي ٦ و٧ و١٣ نوار شن اليهود هجمات جديدة على قرى عربية أخرى. ففي الزيتون، وهي قرية يكثر فيها هذا النوع من الشجر، **جُمع أهل القرية كلهم في المسجد، ثم نُسف المسجد بالديناميت على رؤوس من فيه.** وفي بيت درّاس طبق اليهود الخطة نفسها التي طبقوها في دير ياسين والتي تقضي باختيار عدد من النساء الحوامل وبقر بطونهن بالمدى والحراب.

ولائحة الفظائع اليهودية المماثلة طويلة جدًا، ولكنها كانت كلها

تنهج هذا النهج، وتَطْبع على هذا الغرار. وهي تفسّر لنا كيف استطاعت قوىً من الإرهابيين والهاغانا صغيرةٌ نسبيًا أن تُخرج نحوًا من ٩٠٠,٠٠٠ عربي من الأرض التي حرثوها وعمروها لأنفسهم منذ آلاف السنين. لقد نجحت «عملية الذعر»، نجاحًا عظيمًا جدًّا، من وجهة النظر الصهيونية، ولعل واضعها أن يكون فخورًا بها!

ولكن الشيء المهم حقًّا هو أن إسرائيل أصبحت دولة مستقلة في ١٥ نوار، وأن الرئيس ترومان كسب السباق إلى الاعتراف بها، وكسبه بمراحل واسعة!



# ٣. عندما دعا اليهود أبطال الفالوجة إلى الغداء!

كانت انتخابات الرئاسة لعام ١٩٤٨ على الأبواب عندما أبحرتُ من بالتيمور على متن شاحنة نرويجية تدعى «هوغ سيلفر ستار» كانت قاصدة إلى البصرة. ولقد اخترت هذه السفينة لأن برنامج رحلتها كان يقتضيها أن تبقى أسبوعين في مصر، وكنت أريد أن تتاح لي فرصة النظر إلى الحرب الفلسطينية من تلك الزاوية. ثم إنني قررت، في ما بعد، أن أرجع إلى مصر، من طريق العراق وشرقي الأردن.

ذلك بأن شيئين اثنين صدّاني عن سبيلي: الأول أن دائرة الجوازات كانت قد قاطعت مصر، فإذا على جوازي خاتم ضخمٌ جليلٌ ينصّ على أن الجواز «غير صالح للسفر إلى مصر والنزول فيها». والثاني أن هدنة قلقة كانت قد أوقفت إطلاق النار في الحرب الفلسطينية، ومن هنا كان من الجائز أن تنشأ مصاعب تحول دون ذهابي إلى غزة والخطوط الأمامية، حتى ولو سمح لي المصريون في النزول إلى بلادهم برغم معارضة وزارة الخارجية الأميركية. صحيحٌ أن قائدًا مصريًا كانت تطوّقه آنذاك مع ألفين من القوات المصرية الفقيرة إلى السلاح قوةٌ إسرائيلية تتفوق على رجاله في العَدَد تفوقًا كبيرًا بعد أن أفاد اليهود من الهدنتين الأولى والثانية للحصول على السلاح من تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا - ولكن كان لا بدّ من أن ينقضي أسبوعان على الأقل قبل أن تصل «هوغ سيلفر ستار» إلى الإسكندرية.

وكان الذي دفع دائرة الجوازات إلى أن تقف هذا الموقف من الراغبين في السفر إلى مصر مقتل أميركي يهودي في القاهرة. ومن هنا

ذهبت وزارة الخارجية الأميركية إلى الاعتقاد بأن حياة الأميركيين في مصر عرضة للخطر، فهي لا ترغب في أن تجعل مني حادثةً دولية. . .

وعلى أيّ حال فقد كنتُ في سبيلي إلى البلاد العربية مزوّدًا بفألٍ حسنٍ في حظٍ سعيد. وتفصيل الأمر أني كنت تراهنت في أول تشرين الأول مع صديق هولندي على أن ترومان سوف يكسب المعركة، وكان صديقي ذاك قد ارتضى أن يكون الرهان عشرة أمثال يدفعها هو مقابل مثلٍ واحد أدفعه أنا. ولم يكن الذي دفعني إلى ترجيح ترومان اعتقادي بأنّ هذا الأخير يستطيع أن يهزم مرشحًا صالحًا من الحزب الجمهوري، ولكني كنت أؤمن بأن كثيرًا من الجمهوريين سوف يحجمون عن التصويت لديوي. وهكذا يكون في ميسور ترومان أن يفوز بسببٍ من هذا الاستنكاف عن التصويت. والواقع أن الأنباء التي حملها إليّ راديو السفينة بشرّتني بقدر إضافيّ من المال أستعين به على رحلتي. ولم أكن لأعرف آنذاك أن ترومان سوف يخرّب على هذا النحو الصداقة العربية ويُنزل بالولايات المتحدة أذًى يكاد يستعصي على التعويض والإصلاح، وإلّا لكنت خليقًا بأن أغدو أقلّ سرورًا بذلك الكسب. وأيًا ما كان، فلعلٍ ديوي ما كان ليقف من القضية الفلسطينية، في حال نجاحه، موقفًا أفضل، وذلك للأسباب عينها.

ولم تكن الـ«هوغ سيلفر ستار» باخرة ضخمة - فزنتها أقل من ٧,٥٠٠ طن بعض الشيء - ولكن الغرف المفردة للركاب كانت تتسع لأربعة عشر مسافرًا. وكان أول اتصالي بهم عقب إبحار السفينة من بالتيمور، وكان معظمهم أخصائيين في البترول، فهم قاصدون إلى البحرين للعمل في خدمة شركة كالتكس البريطانية هناك، وكانت مع كثرتهم زوجاتهم وأطفالهم. وكانت ثمة امرأة في ريعان الشباب عملت فترة في السلك القنصلي بالكونغو البلجيكي، ثم غادرته لتقصد إلى بلدٍ لا يقلّ عن الكونغو حرارةً ولكنه أقلّ رطوبةً بكثير - إلى الظهران في المملكة العربية السعودية ابتغاء العمل ضاربةً على الآلة الكاتبة في



مكتب مكيّف الهواء وبراتب أكثر سخاءً. وكان بين المسافرين أيضًا طالب نرويجي شاب يقوم برحلة علمية، بعد تخرجه من الجامعة، رغبةً في أن تتمّ له صورة عن العالم.

وكانت السماء تجود بالمطر حين بلغنا الإسكندرية. وكان ثمة شبه تعتيم لا تعتيم كامل. لأنه فيما كانت المنائر القائمة عند مدخل الميناء سوداء كانت أنوار المدينة تبدو غير مبالية بالقاذفات الإسرائيلية التي سبق لها أن دمرت عددًا من الأبنية في ذلك الثغر، وقتلت عددًا من الناس. وإذ لم تجرؤ الـ«سيلفر ستار» على دخول الميناء أثناء الليل، وفي غمرة من البحر الهائج، فقد بقيت خارج المرفأ إلى الضحى.

وبالنظر إلى الخاتم الذي يحمله جوازي والذي ينصّ على أنه غير صالح لهبوط مصر فقد كنتُ شبه متأكد أنه لن يتاح لي النزول إلى الشاطئ لأبسط قضيتي لشرطة الميناء. ولكن ما إن شُدّت الـ«سيلفر ستار» إلى رصيف المرفأ الداخلي مقابل رأس التين تقريبًا - موقع فنار الإسكندرية القديم الذي كان إحدى عجائب الدنيا في العصور السالفة - حتى صعد رجال الشرطة إلى متن السفينة ومعهم المراقبون العسكريون وموظفو الجمرك، والتمست منهم السماح لي بالنزول إلى البرّ المصري بعد أن بدأوا مناقشاتهم الأولية مع ربان الباخرة.

وكنت خليقًا بأن أكون أكثر تشاؤمًا لو عرفتُ من قبل شيئًا عن المتاعب التي كانت مصر تلقاها من بواخر الدول الغربية. لقد سمعتُ بذلك الآن في تفصيل محزون. حتى إذا تقدمت القصة - وتأكدت لديّ فيما بعد من طريق عدد من الأميركيين البارزين الحسني الاطلاع - أدركتُ أن المصريين على حق في تخوفهم. ومع ذلك فقد منحني البوليس سمة مرور فهبطتُ البر.

وكانت مصر قد غدت منذ عام ١٩٣٦ دولةً حرة مستقلة. ولكن بريطانية ما تزال تحتل جزءًا من أراضيها هو منطقة القنال. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت للإنكليز سلطة كبيرة على القوات المصرية

المسلحة، برية وبحرية وجوية، بسبب من اعتماد مصر على المصانع البريطانية في ميدان التسلح. والواقع أن بريطانية رفضت أن تشحن إلى مصر سنة ١٩٤٨ شيئًا من الأسلحة والذخائر على الرغم من أن الحكومة المصرية كانت قد دفعت أثمانها مسبقًا. ومن هنا استشعر المصريون – ولم يكونوا في ذلك ظالمين – أن بريطانيا تحبس عنهم السلاح ساعة الأزمة.

بقيت مسألة ذلك الرجل الذي كان مصرعه مسؤولًا عن السمة المزعجة التي تُثقل جواز سفري. ومن عجب أن وقائع هذا الحادث، التي أيّدتها المصادر الأميركية الرسمية أيضًا، كانت مختلفة جدًا عما أوردته صحف نيويورك عنه. وهذا ما جعلني أتساءل إلى أيّ مدى تملك الولايات المتحدة صحافةً حرةً حقًا.

كان مصرع مستر هاس Haas، وهو يهودي أميركي كان في القاهرة مع زوجته، نتيجة لعوامل متعددة أولها أنه حاول، يوم وفاته، أن يلتقط صورة فوتوغرافية لجنازة مصرية منطلقة من أحد المساجد. وهو عملٌ خليق بأن يُعتبر خروجًا خطيرًا على الآداب العامة في أيّ وقت من الأوقات. وكانت تلك الجنازة، لسوء الطالع، هي جنازة ضحايا قنبلة اعتقد المصريون أن طائرة إسرائيلية ألقتها على القاهرة فهدمت بعض أبنيتها. وإذ كان الرجل الذي يرتكب قباحة التصوير يهوديًا أيضًا فقد استثيرت نقمة الجمهور العارمة. وتجاهل مستر هاس أول الأمر صيحات التحذير. فعرّض حياته لأعظم الخطر. والحق أن امرأته – وكانت معه آنذاك – لم تمسّ غير مسٍ رفيق فانقلبت إلى الفندق من غير أن تصاب بسوء، في حين خرَّ هو ميتًا وبقايا مصوِّرته الفوتوغرافية إلى جانبه.

وعلى العموم فقد كانت الحال في الإسكندرية، وفي سائر مصر من هذه الناحية، توهم بالتناقض. كانت الإسكندرية تضمّ نسبة كبيرة من يهود مصر البالغ عددهم أربعة وستين ألفًا، وكان كثير منهم موظفًا في



الميناء أو حوله. ولقد تحدّثت إلى بعضهم فلم يبدُ لي أنهم يوجسون خيفةً من أن تسبب لهم الحكومة متاعب ولكنهم كانوا قلقين لا يعوزهم التحدي. وفي مستهلّ الحرب الفلسطينية اعتقل بضعة آلاف من اليهود. وكان معظم هؤلاء أعضاء في المنظمات الصهيونية، أو ممن وُجد في حوزتهم سلاح. ولكن المعتقلين جميعًا أُخلي سبيلهم، باستثناء أولئك الذين اعتبروا خطرًا على الدولة، في خلال ثلاثة أشهر. وفي تشرين الثاني لم يكن قد بقي في المعتقلات غير مئتي يهودي أو نحو ذلك.

وفي طول المدينة وعرضها كانت الجدران غاصة بشعارات تلتقي كلها عند هذا المحور: «مصر تقاتل الصهيونية». وكان في ميسور المرء أن يرى بعض البيوت التي دمرتها القنابل، ولكنها كانت قليلة جدًا. والواقع أن الإسرائيليين شنوا، منذ شهر نوار، غارتين على الإسكندرية أحدثتا بعض الخراب وبعض الخسائر في الأرواح. وكان لمنظمة الإخوان المسلمين التي حلّتها حكومة النقراشي السعدية والتي كان يتزعمها رجل شديد التعصب هو الشيخ حسن البنا أثر في هذا التخريب أيضًا. ويعزى إلى الإخوان المسلمين نسف صحيفة الـ«إيجيبشين غازيت» Egyptian Gazette التي يملكها البريطانيون.

ولكن التغيرات التي طرأت على الإسكندرية كانت، من نواح أخرى، اجتماعية أكثر منها مادية. فمنذ الاستقلال عن بريطانيا سنةَ ١٩٣٦ تعاظمت موجة الوطنية المصرية واكتسبت طابعًا من العنف لم يزده خَلْق إسرائيل الأنكلو أميركي وما تلاه من أعمال كلها معادية تقريبًا لمصر وحليفاتها العربيات إلا حدةً وضراوة.

وكان البوليس ورجال الجمارك يغالون في التدقيق في دراسة الكشوف وحمولات السفن. أما معاملتهم للسياح والمسافرين العابرين فكانت تنضح بروح الشهامة والفروسية. وكان التقاط الصور الفوتوغرافية في الميناء أو الشوارع محظورًا تحت طائلة السجن ومصادرة الآلة المصوِّرة.

وواضح أن ريبة المصريين في كشوف الحمولات كان لها ما يبررها. ذلك بأن عددًا غير يسير من السفن الأوروبية والأميركية قُبض عليها وهي تحاول تهريب الأسلحة والذخائر إلى إسرائيل بعد أن تزوّدت بالماء والطعام والوقود من الموانئ المصرية. وحادثة السفينة الموسومة بالـ«فلاينغ ترايدر» Flying Trader من أقوى الأمثلة على ذلك.

ففي آذار ١٩٤٨، قبل انسحاب البريطانيين من فلسطين، حاولت الـ«فلاينغ ترايدر» أن تفرغ شحنة مؤلفة من عربات مدرّعة[1] مزودة بصهوات خاصة للمدافع، في تل أبيب. وكانت هذه المعدات - وهي أسلحة حربية من غير ريب - معبأةً في صناديق مكتوب عليها «تراكتورات» لكي يُخدع رجال الجمرك عن حقيقتها. ولم تكن تلك «التراكتورات» في الواقع غير معدات حربية فاضت عن حاجة الجيش الأميركي فاشتراها الأميركيون الصهيونيون في فيلادلفيا.

ولم تنتبه سلطات الجمرك البريطانية إلى هذه الخدعة إلا بعد إنزال اثنتي عشرة عربة من تلك العربات العسكرية إلى البرّ. فاحتجزت الثماني والثلاثين العربة الباقية وبعثت بها إلى الهند حيث وُضعت في بعض المستودعات ببومباي في انتظار عودة الشاحنة إلى الشرق الأوسط بعد قيام إسرائيل (١٥ نوار). وفي ١٥ تشرين الثاني عادت الـ«فلاينغ ترايدر» - وكان ربانها يهوديًا - إلى قناة السويس وعلى ظهرها ثمانية وثلاثون «تراكتورًا» مكتوبًا على كل من صناديقها بخط واضح كلمة «**تل أبيب**» فكان طبيعيًا أن يُصادر الجيش المصري تلك المعدات الحربية.

ومن الأمثلة على ذلك أيضًا حادث الـ«مارين كارب» Marine Carp، وهي إحدى الناقلات التابعة للجيش الأميركي والمسيّرة بإشراف «الأخوة لهمان» Lehman Brothers. فقد حملت هذه الناقلة أربعين

(١) يبلغ عددها الخمسين. [المعرب]



يهوديًا فارين إلى إسرائيل ونحوًا من ٦٤٠ حقيبة سفر كبيرة. فكان من الطبيعي أن يدرك العرب أن هذا المقدار الهائل من الأمتعة الشخصية - ست عشرة حقيبة لكل مسافر - لا ينطوي على ملابس ولكن على أسلحة وذخائر...

وفي القاهرة التقيت عددًا من رجال السفارة الأميركية فأيدوا جميعًا المعلومات التي حصلت عليها من طبيب الأسنان الأميركي الدكتور هنري كورتيس Curtis المقيم في مصر منذ عشرين سنة تقريبًا، والقاضي هنري عضو المحكمة المختلطة وكلاهما يقطن الإسكندرية. وهناك سمعت أول ما سمعت بالصدمة التي نزلت بالعرب والذعر البالغ الذي لفّهم بسبب من اعتراف ترومان المتهوّس بإسرائيل، **وبسبب من السيل العرم من الرجال والأسلحة المتدفق من الولايات المتحدة إلى إسرائيل**. وإذ تزاوج هذا الموقف مع رفض بريطانيا والولايات المتحدة بيعَ السلاح للعرب، فقد أدرك القوم بما لا يحتمل اللبس أن هاتين الدولتين تناصران اليهود عليهم.

وفي الإسكندرية سمعتُ، أول ما سمعت، بالفائدة التي جنتها إسرائيل من هدنة حزيران. ذلك بأن اتفاقية وقف النار قضت بأن يتعهد الفريقان بعدم استغلال الهدنة في تحسين مركزهما العسكري وبعدم اصطناع خطوط التموين لغير نقل الطعام والأدوية والمعدات الطبية. والواقع أن إسرائيل خرقت أحكام هذه الاتفاقية خرقًا موصولًا، فاستقدمت من تشيكوسلوفاكيا وغيرها كل ما تحتاج إليه من أسلحة وذخائر.

واكتشف مراقبو هيئة الأمم العسكريون في مختلف المطارات خرقَ اليهود لأحكام الهدنة. فما كان من اليهود إلا أن طردوا هؤلاء المراقبين من المطارات. فاحتجوا لدى الأمم المتحدة، ولكن احتجاجاتهم لم تَلقَ في ليك ساكس غير آذان صماء.

وفي هذه الأثناء كان سيل من السفن ينقل إلى تل أبيب وحيفا

مزيدًا من الذخائر والطائرات، وحتى الدبابات أيضًا. وهنا أيضًا أُقصي مراقبو الأمم المتحدة – وكانوا في العادة ضباطًا أميركيين أو بلجيكيين أو فرنسيين – عن الموانئ ولم يسمح لهم بدخولها إلا بعد إفراغ السفن بالكلية.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أمسى جيش إسرائيل أحدث جيوش الشرق الأوسط وأحسنها تسلحًا. واستخدمت حكومة إسرائيل ما يزيد على تسعين طيارًا أجنبيًا من الولايات المتحدة وكندا وجنوبي أفريقيا لقاء راتب مقداره أربعمئة دولار شهريًا. فيما كان سلاح الطيران المصري – ومصر هي الدولة العربية الوحيدة التي كانت لها قوة جوية تستحق الذكر – يتولاه رجال لم يتمرسوا بهذا الفنّ، فمن اليسير إيقاع الهزيمة بهم. وأحبّ أن أضيف هنا، بين معترضين، أن هؤلاء الطيارين المرتزقين كانوا على أيّ حال نكدي الطالع. صحيح أن الراتب الاسمي لكلٍّ منهم كان أربعمئة دولار مضافًا إليها النفقات، ولكن هذا كان «قبل الضريبة»، ومن هنا كان الطيارون الذين يتبقّى لهم من رواتبهم مئة دولار صافية يعتبرون أنفسهم ذوي حظ عظيم. ليس هذا فحسب، بل إن معظمهم لم يكونوا يملكون من المال ما يمكنهم من العودة إلى أوطانهم، عندما انتهت عقود عملهم مع حكومة تل أبيب. فلا عجب إذا ما أحدثوا لغطًا بالغًا، بل قلاقل وشغبًا، عندما حملت هدنة رودس إلى البلاد سلمًا قلقًا وموقتًا.

ولكن هؤلاء الطيارين لم يكونوا وحدهم في الميدان. فقد توافد اليهود المدربون على القتال من مختلف أنحاء أوروبة إلى إسرائيل. فلم يدخل شهر تموز ١٩٤٨ حتى كان لدى الحكومة الإسرائيلية جيش نظامي مدرّب مؤلف من ٤٥,٠٠٠ مقاتل تدعمه قوى إضافية يزيد عدد أفرادها على عشرة آلاف. وكان هذا الجيش الضخم يحارب ستة آلاف جندي مصري، وثمانية آلاف جندي سوري، وخمسة آلاف جندي أردني، ونحوًا من ستة آلاف وخمسمئة جندي عراقي.



ولقد أجمع مراقبو الأمم المتحدة كلهم على أن العرب إنما خسروا الحرب الفلسطينية بسبب من قبولهم هدنة حزيران والتزامهم أحكامها. ومن الأخطاء التي ارتكبها المصريون بخاصةٍ احتفاظهم بجيب الفالوجة، وهو موقع أمامي ما لبث أن قُطعت سبيل الاتصال به، بعد انسحاب القوات المصرية التي تدعمه، قبيل إعلان وقف النار. وكان المنطق يقضي بأن تنسحب تلك الكتيبة المقاتلة في الفالوجة إلى موقع يقيها خطر التطويق ويحسّن مركز الجيش المصري الحربي العام. ولكنّ المصريين لم يفيدوا من هذه الفرصة. حتى إذا استؤنف القتال عزل اليهود الكتيبة – وكانت بقيادة ضابط سوداني يُدعى السيد طه – وطوقوها. والواقع أن هذه الكتيبة الباسلة تمكنت – برغم فقرها إلى الذخائر الحربية وبرغم فقدانها الطعام باستثناء ما كان يرد عليها منه من مصر ويُلقى به إليها بالمظلات تحت جنح الظلام – من أن تصدّ عددًا غير معروف من الهجمات الإسرائيلية، حتى لقد قرر الإسرائيليون آخر الأمر أن من الخير لهم اجتناب الاحتكاك بالمدافعين عن الفالوجة حتى يعضّهم الجوع. ومن ذلك الحين حتى قبول مصر الصلح الذي عُرض عليها صمدت هذه الكتيبة الباسلة ولم تتزحزح عن موقعها.

وثمة بضع حكايات عن هذه الفترة ورجالها دخلت نطاق الأسطورة ولم تعد جزءًا من التاريخ. ومع هذا فهناك قصة أو قصتان سمعتهما من بعض شاهدي العيان. من ذلك أنه حين عرف الإسرائيليون أن رجال الفالوجة جائعون، اقتربوا من خطوط الحامية المصرية رافعين راية السلام واتفق الفريقان على أن تجري محادثة بينهما ظهيرة اليوم التالي في مقرّ القائد الإسرائيلي.

وفي الميقات المحدد وصل السيد طه وكبار أعوانه إلى مكان الاجتماع، وكان الإسرائيليون قد أعدوا مقصفًا (بوفيه) خليقًا بالفرنسيين الخبراء بالموائد وصنوف الشراب أن يعتبروه من الطراز العالي في الفخامة والترف. كان ثمة خروف محمّر كامل محشوّ بالأرز واللوز

والفستق، وورق عنب محشوّ، وسَلَطات، وزيتون، ودجاج محمّر، وحمص بطحينة، وبقلاوة، ولائحة طويلة بضروب أخرى من الطعام قُصد بها إلى إضعاف معنوية أولئك الرجال الجائعين والفتّ في عضدهم.

بيد أن القائد المصري كان يعرف النفسية الإسرائيلية معرفةً حسنة. لقد قدّر أن ينطوي ذلك الموعد المضروب عند الظهيرة على شيء من مثل هذا. فحذر رجاله ودعاهم إلى أن يُظهروا لا مبالاة تامة بالطعام الذي سيواجههم العدو به. وكان من نتيجة ذلك أن فسدت خطة الإسرائيليين. ففي بطولة، بلع المصريون رضابهم الذي سال على نحوٍ غير إرادي بسبب من الروائح الحارة اللذيذة المنبعثة من المقصف، وتجاهلوا ذلك الطعام الشهيّ، قائلين إنهم نعموا قبيل مغادرتهم خطوطهم بغداء ممتاز!

وكان السيد طه بطلًا قوميًا حين وصلتُ إلى مصر، ولكن معنوية الجيش كانت منحطة جدًا، ومعنوية الشعب كذلك. وكانت النقمة على حكومة النقراشي قد بلغت حدًا جعلني أكتب مقالًا إلى إحدى المجلات الأسبوعية في نيويورك تنبأت فيه بمصرع الرجل في وقت قريب. وإذ كنت مضطرًا إلى أن أبعث بتلك الرسالة من مرفأ محايد غير خاضع للمراقبة فقد وصلتْ إلى الولايات المتحدة بعد عشرة أيام تقريبًا من مقتل النقراشي في ٢٨ كانون الأول سنة ١٩٤٨.

ووجّه المصريون تهديداتٍ إلى القنصليتين الأميركية والبريطانية في الإسكندرية، وسفارتي الدولتين في القاهرة. وهبطت أسهم الولايات المتحدة وبريطانيا إلى الدرك الأسفل بعد أن عجز مصرع الكونت فولك برنادوت عن أن يغيّر من سياسة البلدين المحابية لإسرائيل. واجتاحت المصريين البارزين المتمتعين بأعظم النفوذ موجة من الاستياء المرير. وأذكر أن عضوًا في مجلس الشيوخ قال لي: «تزعم، وأنا مصدّق لما تقول، أن نيويورك ليست جزءًا من أميركا. ولكن إذا كانت الولايات



المتحدة لا تملك نيويورك، فإن نيويورك تملك الولايات المتحدة!».
وقال آخرون: «ما الذي دهى الشعب الذي ما فتئ يتشدق بالعدالة ويكثر من الكلام عليها؟ ما الذي دهى الأمة التي قهرت عسكريي ألمانيا واليابان؟ كيف تجيزون لستة ملايين صهيوني أن يسوقوكم بالصياح والشغب، إلى أن تنتحروا سياسيًا في هذه البقعة التي تعد أخطر منطقة استراتيجية في العالم؟»

ولأول مرة التقيت في مصر أميركيين رسميين وغير رسميين يدافعون في إخلاص عن نيات بلادهم الطيبة ويبكون في الوقت نفسه لرغبة الرئيس ترومان في أن يُخضع مستقبل بلاده لعددٍ من أصوات اليهود الانتخابية. وفي كل مكان كان الناس يرددون الكلمة المنسوبة إلى هاري ترومان: «كم صوتًا يملك العرب؟» ولأول مرة في حياةٍ من الرحلة والأسفار يصبح الجواز الأميركي عبئًا ثقيلًا على صاحبه.

وأيًا ما كان، فقد انتهت تحقيقات البوليس المصري إلى السماح لي بالترحُّل الحرّ في الديار المصرية. وهكذا امتطيت متن الأكسبريس من القاهرة إلى بورسعيد ومن ثم إلى القنطرة حيث وضع الجيش في تصرفي سيارة وسائقًا، على أن التحق بالـ«سيلفر ستار» في بور سودان على البحر الأحمر خلال أربعة أيام. والواقع أنها فترة لا تتسع لدراسة طويلة، ولكنها كانت خيرًا من لا شيء.

وغزة هي مفتاح مصر وبابها. فعلى نحو مئة وسبعين ميلًا من القنطرة يمرّ المرء بالعريش قبل أن يصل إلى جدران المدينة الخربة التي صانت مصر، منذ سنة ١٥٠٠ ق.م، من الغزو البريّ من جانب الحيثيين والأشوريين وصهيونيي العصر الحديث. كانت السكة الحديدية قد نُسفت وكانت الألغام منثورة ههنا وهناك، ومع ذلك فقد وصلنا غزة مع الغسق. وعلى طول الطريق كنا نتقدم عبر خطوط من الجنود المصريين الذين كانوا يراقبوننا دون أن يأتوا بحركة ما. وفي حالة واحدة كان استقبالنا مذهلًا. ويحسن بي أن أنصّ على أني كنتُ، عام

١٩٤٨، أزن ما يزيد على ٢٢٠ رطلًا، وإلى ذلك فقد كنت ألبس سترة خاكية طويلة ذات أربع جيوب وحزام، وقبعة واقية من الشمس، ونظارتين سوداوين، وكان شارباي أكثر ظهورًا للعيان، فيما يبدو، من الشعر الذي على شفتي السفلى، لأننا ما كدنا نقترب من جماعة من المشاة المصريين حتى رحب بنا هتافٌ مدوٍّ وتلويح بالقبعات استمرا إلى أن ابتعدنا عن مدى السمع عند أحد المنعطفات. وفي ذهول، لاحظت أن سائق السيارة التي تقلّني - ولم يكن عسكريًا - قد قوّم ظهره على نحوٍ عسكري رفيع لدن سماعه الهتافات. وحين سألته عن السبب في هذا التشريف كله أجابني، وكان قد اختير دون غيره لمرافقتي بسببٍ من معرفته الإنكليزية:

«لقد حسبوك الملك فاروق!»

وكان النهار رائعًا حارًا منيرًا، وكانت الطريق على الرغم من ضيقها رقيقة ناعمة. وخارج حدود المدينة القديمة كان آلاف من النازحين محشورين في ملاجئ مرتجلة في ميسورك أن تصفها بجميع النعوت إلا الحسنة منها. وكان المحظوظون منهم ينامون في قنوات مُقبَّبة تحت الطرق أو في خيام من قماش. أما الكثرة الكبيرة من هؤلاء البائسين فاحتفروا ملاجئ لهم في الرمل وكدّسوا الحجارة من حولهم. ولم يكن ثمة ماء غير البحر المالح، وغير ما كانت شاحنات الجيش تنقله إليهم من الماء العذب. وكان السعداء هم وحدهم الذين يملكون شيئًا من طعام، لأن الأغذية كانت قد نفدت من غزة فليس فيها من الطعام غير الحصص الهزيلة المخصصة للجند. والواقع أن كثيرًا من الجنود آثروا، في طواعية وطيب نفس، أن يجوعوا لكي يتمكن اللاجئون الفلسطينيون التعساء من البقاء على قيد الحياة.

وكانت الغارات الجوية كثيرة هنا، وكانت جثث الضحايا قد وجدت قبورًا جوفاء في الرمل. وكان أسرى الحرب من اليهود قد جُمعوا خلف الأسلاك الشائكة وقايةً لهم من نقمة اللاجئين الفلسطينيين



وابتغاء الحؤول بينهم وبين الهرب في وقت معًا. وكانت السلطات المصرية تقدّم إلى هؤلاء أيضًا نصيبهم من الغذاء، ولكنهم ما كانوا يقتسمونه مع العرب البائسين الذين شردوهم من ديارهم. وعلى أيّ حال فقد كان اللاجئون خليقين بأن يردّوا ذلك الطعام لو قُدّم بعضه إليهم.

وكان السيد طه لا يزال مطوَّقًا في الفالوجة، وكانت إذاعته اللاسلكية تعلن يوميًا عن حاجته الماسة إلى الطعام والماء والذخائر الخاصة بالمدافع السريعة الطلقات من قياس ٢٠ و٤٠ مم وبالأسلحة الصغيرة، **يعني إلى ذلك الضرب من الذخيرة التي تحتاج إليها بنادق المصريين الإنكليزية، التي حبسها البريطانيون عنهم.**

وفي غزة قيل لي إن الوضع كله يدور على محور ما صار يُعرف آنذاك بـ«قطاع غزة». ولقد أخبرني الضباط المصريون بأنه لم يبقَ لهم شيء كثير يعملونه هناك. لقد حُطمت معنوية الجند منذ أيام القتال الأولى عندما أوشكت الغارات الجوية الإسرائيلية أن تقضي على الجيش كله وقوافله كلها تقريبًا. فالذي يبدو أن اليهود علموا، من طريق الجواسيس، بتقدم الجيش المصري فراقبوه من الجوّ. حتى إذا بلغت القطعات الرئيسية بمدرعاتها ومؤنها نقطة متوسطة، أو تكاد، بين العريش وغزة، حيث لم يكن ثمة ما يقيها غائلة الغارات الجوية، أمطرتها بوابل من قذائفها عشرات من الطائرات الإسرائيلية - وبعضها من طراز سبيتفاير، وبعضها من طُرز أخرى فيها طراز مسر شميت نفسه - ومزقتها شرّ ممزق، بعد أن قتلت أو جرحت آلافًا من رجالها. وهكذا شُلَّت القوات المصرية بضربة واحدة. صحيحٌ أنها ما لبثت أن تلقت إمدادات من الوطن ولكنها لم تستعد قطّ قوة الدفع التي حفزتها في الانطلاقة الأولى.

ولكن هذه الفاجعة لم تكن غير واحدةٍ من عدد من الفواجع منيت به الجيوش العربية. ولعلّ من أهم الأسباب التي أدت إلى خسارة

العرب الحرب أن كل دولة من دولهم كانت تنتهج نهجًا استهدفت به الربح على حساب حليفاتها. وبكلمة موجزة، لم تكن ثمة وحدة في العمل أو تنسيق للجهود.

وكانت الدول العربية رسمت خطةً، لو نُفذت، لأدت من غير ريب إلى إلقاء الإسرائيليين في البحر الأبيض المتوسط بعد عشرة أيام من اندلاع نار الحرب. وكانت هذه الخطة تقضي بأن تتقدم القوات العربية في آن معًا على طول الساحل من الشمال ومن الجنوب لتلتقي آخر الأمر في حيفا. وكان الاتفاق قد تمّ على أن تزحف القوات السورية واللبنانية من الشمال، وتزحف القوات المصرية من الجنوب. وفي الوقت نفسه يزحف الجيش الأردني (وهو القوة العسكرية الوحيدة التي كانت تتمتع بين الجيوش العربية بتنظيم حسن) من الشرق في اتجاه نقطةٍ عند ساحل البحر بين حيفا وتل أبيب. أما في الشمال الشرقي فكان من مهمة القوات العراقية أن تعبر نهري اليرموك والأردن وتنتشر على شكل مروحة ابتغاء القضاء على مقاومة العدو في المناطق المطوقة أو المعزولة.

والتزمت مصر - والتزم الأردن بادئ الأمر - الخطة المرسومة. ومُزقت القوات المصرية شرّ ممزّق قبل أن توّفق إلى مغادرة الأراضي المصرية نفسها، كما شرحنا. ولكن الجيش الأردني وفق إلى شق طريقه في وجه مقاومة إسرائيلية متفوقة حتى بلغ نقطة لا تبعد عن البحر الأبيض المتوسط غير ميلين اثنين. ولم تقم القوات السورية - وقد عاقتها سياسات دمشق المترددة عن العمل - بأكثر من مناورات امتحانية حول المعاقل الإسرائيلية. في حين لم تبتعد القوات اللبنانية كثيرًا عن مواقعها الأصلية. أما العراق فكان بين عاملين اثنين: ضَغْطِ بريطانيا، ورغبته الملحة في نصرة حليفاته العربيات، وكان يرجو - في مأزقه ذاك - أن تتوصل الأمم المتحدة إلى حلّ عادل للقضية. وأيًا ما كان فلم تصل القوات العراقية إلى ساحة القتال إلا بعد أن كانت لحظة النصر



العاجل قد ماتت.

وليس يدري أحد على التحقيق ما الذي حمل الفرقة العربية الأردنية على أن ترتد فجأةً إلى الأردن بعد أن شقت طريقها على النحو الذي وصفنا وغدت على مسيرة صباحٍ واحد من أهدافها. ولكنّ ثمة مجالًا للاعتقاد بأن ضغط بريطانيا علىَ المسؤولين في عمّان هو السبب في ذلك.

## ٤. في السودان والبحرين والكويت

وقضيت في بور سودان أربعة أيام أتاحت لي فرصة نادرة لاستعراض مشاهداتي في الإسكندرية والقاهرة وقطاع غزة وتلخيصها.

والواقع أني لاحظت أثناء زيارتي القصيرة لمصر أنّ معظم اليهود المصريين لم يكونوا صهيونيين وأنهم يعطفون على الحركة الصهيونية عطفًا ضئيلًا أو لا يعطفون عليها البتة. صحيح أنهم يستشعرون شيئًا من المشاركة الوجدانية نحو إخوانهم الراغبين في الفرار من أوروبة، ولكنهم عاشوا مدة بين العرب جعلتهم يفهمون النقمة التي تعصف في نفوسهم بسبب من إخراج أهل فلسطين من ديار آبائهم وأجدادهم تحقيقًا لنزوات بعض الساسة البريطانيين والأميركيين. والحق أن كبير حاخامي مصر، حاييم نحوم أفندي، كان خصمًا جريئًا للصهيونية، يحاربها علانية وكذلك كان كثير من اليهود المصريين الذين كشفوا لي عن اعتقادهم بأن الحركة الصهيونية سوف تنتهي بكارثة تصيب اليهود حيثما وُجدوا.

وفي غزة شاهدتُ صورًا فوتوغرافية لبعض الفظائع البربرية التي أنزلها الصهيونيون بالعرب رجالًا ونساءً وأطفالًا. وكان أحد الضباط البريطانيين السابقين يصف لي في حماسة بالغة بعض تلك المشاهد. ولقد سألته ما إذا كان العرب قد ارتكبوا فظائع مماثلة، فقد بدا لي أن الوحشية تولّد الوحشية وأن العرب الذين أُخرجوا من ديارهم لن يعدموا فرصة للانتقام. فأقرّني الضابط على ذلك قائلًا إن العرب لم يسكتوا على عدوان اليهود. فقد كمنوا للجند الإسرائيلي ولأفراد عصابة شترن وقطّعوهم إربًا إربًا بعد ذلك. ثم أضاف: «ولكن العرب أطفال في هذه الشؤون. فهم لا يقتلون في أناةٍ وروية كمن يجد متعة في مجرد القتل



ولن تقع عندهم على الوحشية المدروسة المقدّرة التي تجدها عند أولئك الصهيونيين. إن ثمة شيئًا غير إنساني في جماعة شترن والأرغون هؤلاء».

وكنت طلبت إلى المسؤولين المصريين أن يعطوني بعض الصور التي تمثل أعمال اليهود الوحشية، فرفضوا برغم ما أوضحته من أن نشر هذه الصور يفيد قضية العرب كثيرًا. لقد أشاروا إلى جثث الرجال والنساء والأطفال الممزقة وقالوا: «كيف نستطيع أن نرفع رؤوسنا حين نسمح بنشر هذه المشاهد في بلادك؟ إنهم إخوتنا وأخواتنا، ولقد كنا عاجزين عن صيانتهم والدفاع عنهم!»

وحوالى ذلك الوقت وجه بعض اليهود البارزين في نيويورك - وقد روعتهم أنباء مجزرة دير ياسين - رسالةً إلى الـ «نيويورك تايمس» موقعة بإمضاء الدكتور آلبرت آينشتين، جاء فيها:

«... ومن الأمثلة على ذلك ما اقترفوه [أي أفراد عصابة ماناحيم بيجين] في قرية دير ياسين العربية. فهذه القرية البعيدة عن الطرق الرئيسية والتي تحيط بها الأراضي اليهودية لم تشترك في الحرب، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فصدت بعض العصابات العربية التي أرادت أن تتخذ منها قاعدة لها. ومع هذا فقد هاجمت العصابات الإرهابية الصهيونية في ٩ نيسان هذه القرية الآمنة المسالمة، التي لم تكن هدفًا عسكريًا في القتال - وقتلوا معظم سكانها، وتركوا قليلًا منهم على قيد الحياة لكي يستعرضوهم بوصفهم أسرى في شوارع القدس الجديدة..»

ولقد أذهلت هذه الرسالة كثيرًا من العرب. لقد عجزوا عن أن يفهموا هذه الظاهرة: كيف يلفّ الذعر نفرًا من اليهود الأميركيين إلى حدّ التعبير عن مشاعرهم على صفحات الجرائد ثم يسمحون لأنفسهم بأن تسكتهم تهديدات الصهيونيين الأميركيين؟ وكان من العسير عليّ، بعض الشيء، أن أشرح لهم الوضع، ولكن كان ثمة أشياء كثيرة استعصت على التفسير آنذاك، ولم يكن أقلها خطرًا جُبن الصحافة الأميركية واستخذاؤها. ولقد غدا أساسيًا أن أوضح لهم أن المزاحمة العنيفة بين الصحف أحالتها إلى مشروعات تجارية أكثر منها مؤسسات

أنشئت لخدمة الجمهور، وأن تلك المشروعات التجارية كانت تعتمد على الإعلانات التي تردها من الشركات والمحال التجارية الكبرى. ومن هنا كانت دائرة الإعلانات في الصحيفة الأميركية هي التي تسيطر على سياستها في كل ما يتصل باليهود والصهيونيين، وبذلك انتهت الصحف إلى أن تصبح مجرد قوّادات لأولئك المعلنين. فكان من نتائج هذا أن الخبر الصحيح غير المغرض لا يمكن نشره في الصحف الأميركية إلا إذا خلا مما يؤذي المعلنين أو يسيء إلى مصالحهم.

وفي سنة ١٩٤٨ كان همّ السودانيين الأكبر الطعام والحرية. وكان رجال الإدارة البريطانية - الذين أطلق عليهم السودانيون الظرفاء تهكمًا، اسم «الآلهة» - سعوا إلى أن يمكّنوا لنفوذهم الفعلي في البلاد من طريق إدخال الشيوخ السودانيين في الحكومة بوصفهم قضاة ثانويين وجباة ضرائب. وإذ كان هؤلاء الشيوخ يتاقضون نسبة مئوية من الغرامات التي يفرضون والضرائب التي يجمعون، فقد نشطوا في أداء المهمة الموكولة إليهم في نشاط بالغ كانت ثمرته الأخيرة في تلك الأراضي الجرداء، انتشار المجاعة السرمدية. وبدلًا من الطعام كان في السودان محصول من القطن فُرض على السكان لتغذية مصانع مانشستر البريطانية. ومن هنا أخذت النقمة تجتاح السودانيين، وشرع الجائعون منهم يفرون إلى شبه الجزيرة العربية رجاة أن يجدوا من يشتريهم ويتخذ منهم عبيدًا أرقاء. في حين خاض المثقفون منهم غمار السياسة كوسيلة لانتزاع الحرية التي يئسوا من الحصول عليها من طريق التدخل المصري والتي أدركوا الآن أن عليهم أن ينتزعوها من المحتلّ بأنفسهم.

ولم يكن في بور سودان ما يساعدهم كثيرًا. كانت سكة الحديد تتحدر من الكثبان المحيطة بالخرطوم، وكانت ثمة بلدة صغيرة قاحلة في وسطها حديقة عامة أشد صغرًا، وبناء حكومي ضخم وثكنات ترفرف عليها الأعلام البريطانية والمصرية. وباستثناء بعض الجنود المصريين من ذوي الرتب الدنيا لم تقع عيني على أحد من المصريين.



أما الموظفون البريطانيون فكانوا كثيرين، ولم يكن عندهم شيء يقولونه.

وأخيرًا امتطيت متن الـ«سيلفر ستار» من جديد، فانطلقت بي في البحر الأحمر إلى الحديدة ومُخا اليمنيتين ومنها إلى باب المندب (باب الجحيم)، فمحمية عدن فعُمان في اتجاه الخليج الفارسي. حتى إذا بلغنا مضيق هرمز - وهرمز هو إله الشمس، وقد خلع اسمه على المدينة القديمة التي كانت في وقتٍ ما مفتاح الخليج الفارسي - شاهدنا قافلة طويلة من ناقلات الزيت قادمة من مختلف موانئ البترول - عبادان، والبحرين، والبصرة، والكويت، ورأس التنورة - ومتجهةً إلى مختلف موانئ العالم الظمأى إلى الزيت. ونادرًا ما كانت تمرّ لحظة من لحظات الليل أو النهار من غير أن تسطع فيها أضواء ناقلات الزيت الماضية في سبيلها. وكانت الرايات التي ترفعها تلك الناقلات تشير إلى أنها تنتسب إلى دول شتى.

وليس في ميسورنا، من الناحية الجيولوجية، أن نعتبر الخليج الفارسي مياهًا صالحةً للملاحة، لأن سفن الأثقال العميقة لا تطمئن إلى سلامتها، إلا في وسطه. من أجل ذلك تضطر سفن المحيط العالمية إلى أن تبقى ضمن نطاق الحدود الضيقة نسبيًا للمياه العميقة، أو إلى أن تتخبط على محاذاة البر في الطين الذي يتحدر شيئًا بعد شيء إلى شواطئ بلاد العرب وإيران المقابلة. وهذه الضحولة هي أحد الأسباب التي تجعل الحرارة في الخليج الفارسي مرتفعة إلى حد لا يطاق. والواقع أن الحرارة والرطوبة تكونان هناك، في أشهر الصيف، قاتلتين أو تكادان. فنادرًا ما يهبط الميزان إلى ما دون الدرجة المئة فهرنهايت، حتى في الليل. وقد سُجلت الحرارة في الرمل فبلغت ١٦٥ درجة في فترة الأصيل المبكرة. وحتى في كانون الأول كانت الشمس حاميةً على الرغم من أن خط العرض الذي يقع عليه الخليج يُراوح ما بين ٢٥ و٣٠ درجة إلى الشمال من خط الاستواء.

وغربي مضيق هرمز وعلى طول شواطئ بلاد العرب الشمالية الشرقية يقع ما يعرف بالمشيخات المُهادِنة، كما يُعرف الساحل نفسه بالساحل المُهادِن. وإنما تبدأ قصة ذلك منذ تلك الأيام التي وجد فيها شيوخ العرب أن السفن التجارية الهندية المثقلة بالذهب ذات إغراء لا يقاوم. فكانت زوارقهم تعترض هذه الكنوز العائمة، لينطلقَ منها العرب ملوحين بسيوفهم اللامعة، مقنعين البحارة بأن يساعدوهم على التخفيف من أعباء السفينة العاملة على خط التجارة الهندية الشرقية. وطوال بضعة عقود من الزمان وجد شيوخ الجزيرة العربية في ذلك تزجيةً لأوقات الفراغ فيها متعة وفيها فائدة.

بيد أن بريطانيا لم تجد في ذلك متعةً ما. فدعي أسطول صاحب الجلالة إلى التدخل. وفي سنة ١٨١٠ انطلقت حملة عسكرية من بومباي فغزت عُمان وقذفت بنيران مدافعها عددًا من الموانئ العربية، حتى «دُخان» في قَطَر الحالية. وبذلك أدبت بريطانيا تسع مشيخات عربية، وصار في ميسور شركة الهند الشرقية البريطانية، سنة ١٨٢٠، أن تطمئن إلى سلامة أغنى البواخر وأبطأها فيما هي تجوز خياشيم بلاد العرب الشمالية الشرقية، المرتعشة. ولكن البريطانيين لم يقنعوا بذلك. فما كان منهم إلّا أن أقنعوا الشيوخ في نوار ١٨٥٣ بتوقيع «معاهدة سلم سرمدية»، ثم جعلوا من الخليج الفارسي منطقة محكورةً لهم من طريق «الاتفاقية المانعة» Exclusive Agreement في آذار سنة ١٨٩٢. ولقد قيّدت هذه الوثيقة شيوخ الساحل المهادن - كما كان يُعرف آنذاك - بأن يرفضوا كل عرض من عروض الصداقة تتقدم به أيما دولة أخرى.

ومن ذلك الحين غدا سلطان البريطانيين على جزائر ومشيخات شبه الجزيرة العربية الواقعة في الخليج الفارسي أو على ضفافه، كاملًا مطلقًا. وفي سنة ١٩١٤ عندما لمس الإنكليز أن الدبلوماسية الألمانية تعتزم اكتساب الخليج إلى جانبها وجهوا بعثة إلى الكويت وسعوا، في شيء من الإكراه، إلى إغراء شيخها الحاكم بأن يربط مستقبل مملكته





الصغيرة بمستقبل بريطانيا.

واليوم تغصّ هذه المشيخات المهادنة بالمناطق الغنية بالبترول والممتدة من قَطَر إلى رأس الخليج حيث تَعِدُ آبار الزيت الكويتية هذه الدولة الصغيرة بازدهار دونه ازدهار أيّ من الدول العربية. وليس لقَطَر من الثروة النفطية مثل ما للكويت، ولكن في «دُخان» يعبر خط للأنابيب قاعَ الخليج الضحل إلى مصافي البحرين، ويتقاضى شيخ قَطَر عائداته من غير أن يكلف نفسه عناء تكرير النفط محليًا. وفي البحرين حلَّ الزيت محلَّ اللؤلؤ وأصداف اللؤلؤ كموردٍ قومي.

وألقت الـ«سيلفر ستار» مراسيها أول ما ألقتها في البحرين. وإذ كنت أحمل سمةً أمبراطورية من مكتب الجوازات البريطاني في نيويورك فقد اعتقدتُ أني لن أجد أيما صعوبة في النزول إلى البرّ، هناك. وكنتُ على خطأ، ولكني لم أكتشف خطأي هذا إلا بعد أيام ثلاثة. ورست الـ«سيلفر ستار» وسط مجموعة من السفن ترفع الأعلام الأميركية والبريطانية والبانامية. وكان المياء على شكل T، ولكنها T مكسورة الجذع لأن الميناء يتصل عند منتصف الطريق إلى الشاطئ تقريبًا - وعلى زاوية مائلة إلى الغرب - بمجاز ضيق يشكل الحلقة الأخيرة في مدى الثمانية الأميال الممتدة من شعاع رأس الميناء الأفقي إلى اليابسة. وإنما ينتهي المجاز بالطريق إلى المنامة عاصمة المشيخة وإلى اليمين تقوم تلك الشبكة الضخمة المعقدة العصرية إلى أبعد الحدود من أساطين المصافي وأنابيبها ذوات الزوايا. وعلى مسيرة ميل واحد إلى الوراء تمتدّ الطريق عبر مقبرة ترجع إلى العهد الفينيقي لمّا يَرُدْها الباحثون بعد، قبل أن يصل المرء إلى المسجد الأموي الراقي إلى القرن الثامن. والمنامة بلدة صغيرة موحلة تغصّ بالمعدمين ذوي العيون المريضة، والثياب الممزقة، والأجساد الجائعة.

ويحسن بي أن أنصّ منذ البدء على أني هبطت أرض البحرين من غير ترخيصٍ رسمي. فالحقّ أني كنت طوال تطوافي في البلدة خارجًا

على القانون، وكان في ميسور السلطة أن تلقي القبض عليّ وتلقي بي في السجن. ولكن الحظ كان حليفي. وكانت الأمطار تهطل في المنامة، والطرق غير معبدة. وكانت السيارات التي تذرع الشوارع ذهابًا وإيابًا تغرق السابلة بمياه الشوارع ووحولها. وكانت البغال الطويلة المليحة المجلوبة من الأحساء تقوم مقام الجمال والحمير في البحرين، وكان سائقوها المتباهون - اللابسون عادةً سترات عسكرية بريطانية بالية وقبعات خاكيّة ممزقة - أكثر اهتمامًا وأشد رفقًا بالمساكين عابري السبيل.

وعلى الجملة، فبرغم أن فقرهم بدا أكثر تطرفًا في هذه الأرض الغنية من فقر السودانيين في ديارهم الجرداء، كان عرب البحرين مبتهجين غير متشكين. حتى الشحاذون كانت الابتسامة تُظلّ أيديهم المبسوطة التماسًا للعطاء. وكان العمال الحاملون صفائح الزيت على متن الـ«سيلفر ستار» ينفقون فرصة الغداء راقصين على أنغام المزمار الحزينة المُعْوِلة، مكشرين واثبين لكي يُغروا الناظر إليهم بالابتسام. وإنما كانوا يفعلون ذلك تسلية لأنفسهم عن المتاعب أو لعلهم كانوا يقصدون به إلى إدخال الدفء على قلوبهم، إذ لم تكن تعقب الرقص محاولة إلى جمع النقود على الرغم من استمتاع ركاب السفينة وملاحيها جميعًا بالمشهد.

وقال ربان الـ«سيلفر ستار» إنه لن يسمح بالهبوط إلى اليابسة لغير الذين كانت البحرين هي طِيّتهم ومقصدهم. حتى إذا سألناه عن السبب في ذلك أجاب أنه أمرٌ صادر من مستشار الشيخ الممثل لحكومة صاحب الجلالة البريطانية، وهو رجل يدعى المستر بيلي J.C. Pelly وكان مستر بيلي هذا يضيق الخناق على الأميركيين بعد أن عاث ملاحو إحدى ناقلات الزيت الأميركية فسادًا ذات يوم في المنامة وأقلقوا راحة السكان بعربدتهم الصاخبة. ومن ذلك الحين قامت سياسته على هذا المبدأ: «يُحظر السماح للأميركيين بالنزول إلى اليابسة».



وحاولتُ أن أقصد إلى الميناء وأتصل بمقرّ مستر بيلي تلفونيًا. وبعد جهد، ردّ عليّ سكرتيره سائلًا إياي عما أبتغي. فقلت إني صحافي، وإني أحمل سمة بريطانية. فهاله ذلك في ما يخيّل إليّ، ولكنه أخفى انفعاله وكرر القول بأن من المحظور عليّ أن أهبط اليابسة. ثم إنه فكر ثانية أو ثانيتين واقترح عليّ أن أتصل بمستر براون، ممثل شركة «بابكو» في المنامة. وكذلك فعلت. وقال مستر براون إنه يمثل الشركة فعلًا، وإنه يرغب في أن يساعدني على مغادرة السفينة، ولكنه بريطاني، وهو يكنّ الاحترام البريطاني لمن في يده مقاليد السلطة. وهكذا أبدى مستر براون «أسفه»، واقترح عليّ أن أتصل بمستر كيرني Kearney ممثل شركة «آرامكو». و«شركة النفط العربية الأميركية» شركة أميركية، في حين أن «شركة نفط البحرين» يسيطر عليها البريطانيون برغم أن شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» و«شركة تكساس» تملكان فيها، من الوجهة النظرية، نصيبًا مماثلًا لنصيب البريطانيين. ومن هنا رجوت أن يُسعفني مستر كيرني. ولكن رجائي ما عتّم أن خاب. لقد تحدث إليّ الرجل في ثقة وبروح من التشجيع، ولكنها كانت ثقة ديبلوماسية، وتشجيعًا ديبلوماسيًا. وقال لي إنه سيدرس المسألة ويتصل بي. بيد أنه لم يفعل شيئًا من ذلك قط!

وكذلك سلختُ يومين اثنين أسيرًا على متن السفينة، فكنت أرى إلى ناقلات الزيت، من مختلف الهويات والجنسيات، تُشدّ إلى الميناء فتروي ظمأها إلى البترول ثم تمضي لسبيلها. كانت السفن الحربية الأميركية التابعة «لأسطول البحر الأبيض المتوسط» تفد التماسًا لاستهلاكها الذاتي من الوقود، في حين كانت ناقلات الزيت التابعة للأسطول الأميركي تحمل أثقالًا من النفط للبوارج الحربية المرابطة في مالطة واستانبول وأثينا. وذات يوم وفدَ على آل«سيلفر ستار» شيخ ثانوي من شيوخ الأحساء ليقوم بصفقة ما مع ربانها. وكان في ميسوره أن يتكلم الإنكليزية بعض الشيء، فأحاله الربان عليّ اعتقادًا منه أن

الشيخ قادرٌ على «تهريبي» إلى اليابسة. أو هذا ما خُيّل إليّ على الأقل، بالرغم من أنه ليس ينبغي لي أن أعزو هذه الفكرة الإجرامية إلى الربان. فلعلّ دوافعه أن تكون على غاية من البراءة.

وعلى أيّ حال، فقد كان الشيخ معنيًا إلى أبعد الحدود بجمهورية باناما. حتى إذا سألته عن ذلك قال إنها دولة بحرية ضخمة. فذهلت لقوله ذاك، وذهل هو بدوره لذهولي. فقد كان الأمر واضحًا بالنسبة إليه، لأن نصف السفن المشدودة إلى الميناء كانت تحمل راية باناما على صواريها، ونجمة «كالتكس» الحمراء على مداخنها. وحاولت أن أشرح الأشياء للشيخ. فقلت له إن شركات النقل البحري الأميركية - رغبة منها في اجتناب الأجور المرتفعة وغيرها من التبعات الثقيلة التي يفرضها القانون البحري الأميركي - تضطر أحيانًا إلى أن تسجل بواخرها لدى دولةٍ صديقة تكون قوانينها أقلّ صرامةً. وأصاخ الشيخ، وأحسب أنه قد فهمني. ولكنه لم يستطع أن يفهم لماذا يتعين على شركة ما أن تلجأ إلى هذه الإجراءات كلها. وتساءل لمَ لا توضح الشركة هذه الأمور للحكومة وعندئذ تعمد الحكومة إلى تيسير القوانين، وهكذا تتاح للشركة فرصة العمل على نحو مشروع في ظل الراية الأميركية. ولم أعقّب على هذه النقطة بشيء، فقد كانت ثمة أشياء لا يمكن شرحها.

وكان الذي يهمني، آنذاك، أن ألقي نظرةً على تلك القبور الفينيقية والمسجد الأموي. وأسررتُ للشيخ بالمصاعب التي تكتنفني فتأثر أبلغ التأثر. وقال إنه سوف ييسّر لي سبيل النزول إلى البرّ، وكان سائق سيارته يعرف المنامة كما يعرف وجه عباءته. وقد وعدني بأن تعود بي السيارة إلى السفينة عقب انتهاء الزيارة، مؤكدًا أن التدبير الذي اتخذه مستر بيلي ينطوي على بلاهة لا تقلّ عن بلاهة القوانين الأميركية التي تجعل من المتعذر على الأميركيين تسيير سفنهم بربحٍ حسن.

وكانت سيارة الشيخ من طراز «بويك»، وكان سائقها بارعًا. وفي





حذر هبطت رُكن التلفون فيما كان الشيخ يودع الربان والضابط الأول. حتى إذا تهادى الشيخ العربي النحيل بكوفيته البيضاء، وعقاله الصوفي الأسود، هابطًا في أبهة وجلال المجاز الموصل ما بين السفينة والبر، لحقتُ به. وكانت سيارة «بويك» مَفْزعًا مترفًا، فجلست في المقعد الخلفي مع الشيخ وانطلق بنا السائق نحو البلدة.

واجتزنا المقبرة والمسجد في طريقنا إلى العاصمة. وعلى الرغم من أني، لحسن الطالع، لم أحتجّ أو أتذمر فقد أخذني شيء من القلق؛ لم يساورني الخوف من أن أُختطف، ولكني تساءلت هل قد فهم الشيخ ما أبتغي فهمًا صحيحًا وأدرك أن رغبتي قاصرة على زيارة المنامة دون المضيّ عبر المجاز الخاص بالسيارات إلى الأحساء على ساحل شبه الجزيرة العربية.

ولكن الشيخ كان أرقّ حاشيةً مما كنتُ أحسب. فقد وقفت السيارة بنا - أولَ ما وقفت - عند إحدى الدكاكين، وترجل السائق منها مزوّدًا بالمال والتعليمات، وما هي إلا دقائق حتى عاد حاملًا كوفية أخرى شبيهة بتلك التي تغطي رأس الشيخ، وعقالًا. وقال الشيخ إن غطاء الرأس هذا خليق به أن يكون تمويهًا واقيًا، فإذا ما رآني رجلٌ من شرطة بيلي أطوّف في المسجد أو في المقبرة الفينيقية خالني عالمًا عربيًا وتركني وشأني. ونجح التدبير أحسن نجاح. وقضيت في المنامة يومين كاملين (بعد أن أقبلت سيارة الشيخ لتقلني في اليوم التالي) وغمرتني السعادة، لا لأني وفقت آخر الأمر إلى زيارة المقبرة الفينيقية والمسجد الأموي فحسب، بل لأني فقتُ مستر بيلي في فنّ المناورة والكرّ والفرّ!

والكويت تصغير كوت، أو قلعة، ولقد صانت «القلعة الصغيرة» مؤخر الخليج الفارسي هذا طوال قرون، وجائز أن تكون قد صانته طوال آلاف من السنين. والواقع أن الاقتراب إلى المدينة المسوّرة من المرفأ الفخم الرائع ينقل المُشاهد القهقرى إلى عهد سرجون الأول والحضارة العربية الزاهرة في «أكَّد». ولا شك في أن «أُور» الكلدانية

قد تاجرت مع الكويت، وأن السفن الآتية من البصرة كانت تشق طريقها في عُسر عند مدخل جدار البحر القديم الضيق كما فعلت سفينتنا اليوم، محتكة بجوانبه الخشنة فيما كانت تغادر لجج المرفأ المتلاطم الأمواج التماسًا للأمن والسلامة خلف الجدار البحري. وهناك كانت بقايا أسطول اللؤلؤ والمراكب التجارية التي كانت تقوم برحلات يومية إلى العراق، على مبعدة أربعين ميلًا بحريًا. ذلك بأن الكويت كانت، كالبحرين، مشيخة ينهض اقتصادها على اللؤلؤ، وهي اليوم، كالبحرين أيضًا، أرضٌ قوام حياتها الاقتصادية البترول.

وكان من حسن طالعي أن أرى الكويت وهي لا تزال جزءًا من شبه الجزيرة العربية. ففي مستهل الحرب العالمية الثانية تعطل تطور التسهيلات النفطية في الكويت، ولم يُستأنف إلا سنة ١٩٤٧. وبعد عام واحد كانت معدات شركة نفط الكويت تعمل في «البرقان» وجبل «واره» و«الأحمدي». وكانت شركة بكتل الدولية Inter. Bechtel Inc. تنشئ مرفأً وحوض سفنٍ في الخليج الذي يقع قرب الأحمدي. وجندت مؤسسة إ. ب. بادجر E. B. Badger البوسطنية جيشًا بكامله من الرسامين وواضعي التصاميم للعمل في البلاد. وشرعت مؤسسة ويمبي اللندنية في تشييد بناء مكتبي جديد متعدد الأدوار في سوق المدينة. ومع ذلك فقد كانت الكويت لا تزال في شبه جزيرة العرب. ففي مدينة الكويت كان المرء يرتدّ، في مثل نكسة المرض، إلى القرون الوسطى. كانت ثمة تلك الشوارع المتعرجة الضيقة التي تحيط بها البيوت العربية ذات الدور الواحد بحدائقها المسوّرة، وجوانبها المطلية بالكلس، ونوافذها الضيقة المقنطرة. وهناك تقوم الدكاكين التي تبيع النفائس من أوروبية وشرقية وسجاجيد الصلاة الفاخرة والطُرَف النحاسية العربية.

وإنما بنيت الكويت في محاذاة الجزء الداخلي من أسوارها الترابية اللون ذات الفوّهات التي تُطلق منها النار. ههنا كانت المنازل



والدكاكين. وفي الوسط، عبر القصر والباب الرئيسي المفضي إلى الصحراء، كانت رقعة الأرض الواسعة التي ينهض فيها خان (فندق) القوافل والميدان. وهنا كان ويمبي وشركاؤه يشيدون صرحَ «مصرف إيران». وههنا كانت خطوط التلفون تمتد من قطب مؤصّلٍ راسخ إلى زاوية من زوايا البناية فتبدو في غير موضعها وكأنها في فيلم «كو فاديس»[1] Quo Vadis وكانت الأبواب تغلق عندما يهبط الليل خشية أن يتسلل إلى المكان بعض الغزاة من نجد أو من الأحساء، ولكنّ وراء تلك الأبواب مطارًا تستخدمه الطائرات الأميركية العاملة في الخليج الفارسي. ومن خلال كل شيء، تستروح عبق الجزيرة العربية: القهوة والتبغ القوي ذو النكهة الطيبة، ورائحة لحم الضأن المطبوخ الشهية، والزعفران، والأرز، وعبير حبّ الهال وماء الورد وأحيانًا رائحة الموت الكريهة المطوّفة في الأجواء. ووراء الأسوار، بين البلدة والمطار، كانت تلقى القاذورات، وتُطرح جيف الحمير والكلاب والجمال لتصبح طعامًا للطير.

وقُرع ناقوس يُنذر بتغيّر يوشك أن يقع، ناقوسٌ ذو طابع شخصيّ أكثر من خطوط التلفون بما لا يُقاس. وإنما كانت الـ«سيلفر ستار» وهي حاملة هذا النذير: شحنة من ثلاثين سيارة طراز كروزلي. ولقد خُيّل إليّ حين بصرتُ بها، عبرَ الميدان من بناية ويمبي الهيكلية، أن ثمة اجتماعًا سياسيًا. كان المكان يغصّ بالعرب المهتاجين المتبسّمين الذين يومئون بأصابعهم ههنا وههناك، ويفحصون الموتورات في كثير من العناية بعد أن رُفعت أغطيتها. وفجأةً قلت لنفسي: من هنا ستبدأ نهاية العربي وجواده، وتزول صورة رومانتيكية أخرى إلى الأبد. فها

(١) رواية وضعها ساينكيوايز Sienkiewiez (١٨٩٥) وتجري حوادثها في عهد نيرون مصورة ما لقيه المسيحيون الأولون من عظيم الاضطهاد والتعذيب. وقد أخرجت على الشاشة السينمائية. [المعرب]

هم أبناء الصحراء في زيهم البدوي الكامل، من الكوفيات السمراء والعقالات السوداء، إلى العباءات الخشنة السمراء والصنادل المزركشة بالألوان الزاهية. وها هي عدةٌ من سيارات كروزلي الصغيرة غير العملية في طرق شبه الجزيرة العربية الرملية بسببٍ من عجلاتها الصغيرة، تسترقّ أهل الكويت وتستعبدهم. ولقد أخبرني مستورد البضاعة – وهو عربيّ سوري – أنه تلقى طلباتٍ تستنفد الشحنة كلها، وأن في ميسوره أن يبيع أيّ مقدار من السيارات تبعث إليه الشركة به. وأحسبُ أنه على صواب. فلم يبقَ ثمة كبير شك في أن يوم الفَرَس في شبه الجزيرة العربية قد انتهى. فالملك عبد العزيز بن سعود لم يمتطِ صهوة جوادٍ ما منذ عشرات السنين، ولكن عنده أسطولًا ممتازًا من سيارات «كاديلاك» المذهّبة الحواشي، البالغة الطول، والمجهزة بمواقد خاصة لإعداد القهوة وثلاجات تزوّد الراكبين بشراب ماء الورد المثلج فيما تنطلق السيارة بهم في عرض الصحراء.

ولقد حدّثني ابن عم شيخ الكويت، وهو أسود البشرة يحسن الكلام بعدة لغات وقد تلقى علومه في جامعة بيروت الأميركية، عن أثر السيارة في تثوير[1] الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة فقال:

«ألا ترى أني حين أنطلق اليوم للصيد لا أصطنع بازيًا ولكن بندقية؟ إني أصطحب أربع شاحنات وأربع سيارات ليس غير، فأصل ورفاقي إلى موطن القنص في يومين اثنين. أما في الأيام الخالية فكنا نصطحب مئة بعير أو مئتين، إلى جانب أربعين فرسًا في بعض الأحيان، ثم لا نصل إلى مواطن القنص حيث نصيد الطيور والغزلان إلا بعد ثلاثة أسابيع. وكذلك نأخذ معنا في هذه الأيام، أحيانًا، الشاحنة الضخمة التي تُقلّ المولد الكهربائي لكي ننير الخيام، وندير وحدة التبريد السريع حيث نضع اللحم».

(١) Revolutionizing.



أجل ليس ثمة ريب في أن السيارة قد غزت شبه جزيرة العرب، ولكن ما الذي سيحلّ بالجواد؟ لقد قيل إن الجواد عضو في البيت العربي أكثر منه وسيلةً من وسائل المواصلات، وها هي ذي كلمات هذا الشيخ الداكن إلى حد بعيد، المنتمي إلى الأسرة الحاكمة في الكويت، تبدو وكأنها تستأصل استئصالًا كاملًا معالم الجواد النبيل باستثناء كونه موضوعًا للتباهي النَّسبيّ، طبعًا.

وأحبّ أن أنصّ ههنا بين معترضتين، على أن العربي لا يعجب لأن يرى زنجيًا على رأس الأسرة. فوراثة الزعامة القبلية ووراثة المشيخة حق من حقوق الولد البكر بصرف النظر عن أمه. فإذا ما وُلد ابن الأمة قبل ابن الحرة أو الزوجة البيضاء فعندئذ يرث الزنجيّ الزعامة دون أخيه.

والواقع أن وليّ العهد، في هذه الحالة، وهو الولد البكر لعمّ الشيخ الحاليّ، قد لا يرقى العرش بسببٍ من بعض التعقيدات الوراثية التي سيتذرع بها سائر أعضاء الأسرة الحاكمة. ولكنَّ مردّ ذلك لن يكون بأيّ حال إلى لونه الداكن. وحتى الملك عبدالله تزوج، في ما يقال، أمة سوداء من أصل سوداني أو صوماليّ. ذلك بأن المسلمين جميعًا سواسية في عين الله بصرف النظر عن لون بشرتهم. ولعل المسلمين هم أكثر شعوب الأرض تسامحًا نحو أهل الأديان الكتابية الثلاثة على الأقل: الإسلام والنصرانية واليهودية. أما الآن فقد تغيّر الموقف بالنسبة إلى الدين الثالث بعد أن غدت الصهيونية خطرًا يتهدد الشرق الأوسط.

وطوال تاريخ الكويت القديم ظلت مشكلة مياه الشفة من غير حلّ. وحتى وقت قريب عندما أمر الشيخ بتشييد مصفاة لتحويل مياه البحر إلى مياه صالحة للشرب كان أهل الكويت يستوردون ماء الشفة من العراق. وإلى أن بدأت الـ«كوك» K.O.C (شركة نفط الكويت) تبعث بزيتها إلى البصرة كانت المياه تحمل من شطّ العرب وتباع لأهل

الكويت في ظروف من جلد الماعز نجديةٍ لامعة، وكان السّقاة، السُّمر المتجعدو الوجوه الحفاة يطوّفون بالماء في الشوارع المغبّرة، مطنطنين للظامئين بأكوابهم المعدنية المتراكب بعضها فوق بعض طنطنةً موسيقية، صابّين مياههم السكّرية الملوّنة في لباقة واقتصاد من الظروف الجلدية ذوات الصمام.

وفي سنة ١٩٤٧، عندما تدفق البترول من جديد على وجه الصحراء لم تكن أسباب الخزن الملائمة متوفرة، فعقد اتفاق مع شركة نفط البصرة يقضي بأن تخزن هي نفط الكويت إلى أن تنشأ الصهاريج الخاصة به. وفي الوقت نفسه أدّى تدفق الموظفين البريطانيين والأميركيين الأخصائيين في النفط، على البلاد، إلى جانب مستخدمي شركة بكتل الدولية (I.B.I) ومؤسسة بادجر وغيرهم من عابري السبيل الأوروبيين والأميركيين إلى نشوء أزمة في هذا السائل الحيوي - أزمة زادها حدةً فقدان الجعة والمشروبات الروحية وما إليها. وأخيرًا اقترح بعضهم أن يُفرد في كلٍّ من ناقلات النفط القاصدة إلى البصرة حوضٌ خاصٌ بالماء وضروب الشراب. وهكذا حُلّت الأزمة في الحال، عندما ألقت سفينتان أميركيتان مراسيهما في مياه الكويت وأفرغتا من جوفيهما آلافًا من صناديق الجعة. وما هي إلا أيام حتى استشعر الغربيون من نزلاء الكويت أنهم بلغوا نقطة الارتواء أو التشبّع.

وثمة قليلٌ من الماء، طبعًا، على مبعدة ثلاثين ميلًا من البلدة أو نحوها، ولكنه أُجاج مالح ليس يصلح للشرب. وهو ممتاز لتزييت آلات الحفر. والأنابيب تنقله عبر الصحراء، كما تنقل جميع السوائل (عدا مياه الشفة) من مكان إلى مكان في شبه الجزيرة العربية. فيصل إلى تلال «البرقان» حارًا، ذا رائحة، ينبعث منه البخار في ساعات النهار، وباردًا ذا رائحة في ساعات الليل.

وفي كانون الأول من عام ١٩٤٨ كانت الكويت باردة جدًا آناء الليل وعند الصباح الباكر. أما في خلال النهار فكانت الحرارة ترتفع



إلى درجة تضطر المرء إلى تكييف الهواء. وفي شهر آب تبلغ الحرارة في الكويت مبلغًا مخيفًا. ولقد سُجلت مرةً في الرمل فبلغت ١٦٥ درجة فهرنهايت. ومن حسن الطالع أن حرارة الهواء دون ذلك وإلا لغلى عمال النفط في ملابسهم كما تغلي القدر على النار. ومع ذلك فالحرارة مرتفعة إلى حدٍّ لا يكاد يطاق، حدٍّ يجعل الإنكليز التابعين لشركة نفط الكويت يضيقون ذرعًا بأكواخهم المبنية من صفائح الحديد المتغضن كلما فكروا في المستخدمين التابعين لشركة بكتل الدولية (I.B.I) في بيوتهم ونواديهم المترفة المكيّفة الهواء.

وتعتز الـ«آي.بي.آي» بأنها تحيط موظفيها بكل ما ينسيهم أنهم غرباء عن الوطن. لقد شيدت ناديًا رحبًا ينتظم صالةً لعرض الأفلام السينمائية، ومطعمًا يقدّم إلى زبائنه شرائح لحم البقر المعروفة بشرائح همبورغ والنقانق الحارة والكوكاكولا والقهوة الأميركية، ومختلف الأغاني والمقطوعات الموسيقية المسجلة وضروب ألعاب التسلية والمقامرة. وفي المطعم، كانت الألوان كلها هي ألوان «الغرب الأوسط»[1] Middle West، وفيها شرائح لحم البقر، والبطاطا المقلية، واللوبياء الخضراء، واللوبياء الفرنسية، والخبز المُعَدّ في الوطن، والزبدة الطازجة، والمخللات على اختلاف ضروبها، والشاي المثلج، والقهوة المثلجة، وصنوف الفطائر الطازجة. لقد كنتُ ضيفًا هناك، ولقد بدت شبه الجزيرة بعيدةً عن ناظري، بعيدةً جدًا.

وكان جيم والترز، وهو أميركي، يتولى إدارة شركة نفط الكويت بالوكالة. ومنه عرفتُ أن الشركة تملكها مناصفةً مؤسستان اثنتان هما شركة النفط الأنكلو إيرانية وشركة نفط الخليج الأميركية. ولعلّ ثروة

(١) إقليم في الولايات المتحدة يحده من الشرق جبال «آليجيني»، ومن الغرب جبال «روكيز»، ومن الجنوب نهر أوهيو والأطراف الجنوبية من ولايتي ميسوري وكنساس. [المعرب]

آبار النفط الكويتي ضِعْفُ ثروة آبار النفط الإيراني، على الرغم من صغر مساحة المشيخة نسبيًا. ولولا مصافي عبادان الكبرى - وهي أضخم مصافي البترول في العالم كله - لكانت شركة النفط الأنكلو إيرانية خليقةً بأن تستغني عن حقول الزيت الفارسية التي تكتنفها المتاعب وتكتفي بحقول الكويت.

ولقد حكم الشيخ أحمد آل جابر الصباح، الحاكم الحالي، الكويت منذ عام ١٩٢١ عندما ورث العرش عن الشيخ التاسع من شيوخ الأسرة الصباحية التي رقيت العرش حوالى منتصف القرن الثامن عشر.

والكويت كالبحرين، موضوع نزاع بين العراق وإيران على اعتبار أن كلًا من الدولتين قُدِّر لها أن تبسط سلطانها، في فترة من فترات التاريخ، على جزائر الخليج وسواحله. وكذلك تدعي تركيا حقوقًا هناك، للسبب نفسه، على الرغم من أن مثل هذه الدعوى تبدو واهنة تافهة بعد أن انحسر الحكم التركي عن شبه الجزيرة العربية.

وإنما يبني العراق دعواه على أساس من أن تلك الجزر خضعت لسيطرة بابل قرونًا عديدة من الزمان. أما إيران فتبني دعواها على أساس من أنّ الجزر كانت تابعة لها في عهد الإمبراطورية الساسانية. صحيحٌ أن أيًا من الدولتين لن تنازع الأخرى نزاعًا مسلحًا على هذه المنطقة، ولكن من الراهن أن بغداد وطهران غدتا اليوم أكثر اهتمامًا بها، وبخاصة بعد أن حلّ الزيت محلّ اللؤلؤ بوصفه مصدرًا أول للثروة في تلك الديار. وبحسبك أن تعلم أن شيخ الكويت حصل منذ قريب على ٧،٠٠٠،٠٠٠ دولار مقابل توقيعه على الامتياز الممنوح لـ«شركة نفط الكويت».

وبرغم ذلك كله كانت الكويت لا تزال في القرون الوسطى أواخر عام ١٩٤٨. كان التجار يتركون أبواب حوانيتهم مشرعة (ولم تكن لكثير من الدكاكين أقفال على الإطلاق) عندما يغادرونها إلى البيت، في



فترة الأصيل، ابتغاء الاستمتاع بالقيلولة. لم يكن ثمة بارات أو حانات أو كاباريهات. وفي السوق كان التجار يتركون أكداسًا صغيرة من الليرات الذهبية الإنكليزية والليرات المنقوش عليها صورة ماريا تيريزا ثمنًا للخضر التي تُحمل إليهم في الصباح الباكر من المناطق الأكثر خصبًا القائمة على طول الساحل أو عبر الخليج، حتى إذا أقبل بائعو الخضر أخذوا نصيبهم العادل منها وتركوا الباقي على مقاعد التجار أو مناضدهم.

لقد تغيّر كل ذلك، اليوم. فسيارات الجيب المطقطقة تتمايل في الشوارع الضيقة مشتتةً قوافل الحمير والجمال. والحانات والبارات تُنشأ وتنطلق منها الموسيقى المدوية. وتغيرت الدكاكين أيضًا، فظهرت على أبوابها أقفال من نوع «ييل» بعد الزيارات الأولى التي قام بها العمال في آبار النفط إلى المدينة، وهُجرت عادة ترك الذهب على مناضد الدكاكين هجرانًا مفاجئًا. لقد غزت الحضارة الكويت، ولن ينقضي طويل وقت حتى تحتل زوايا الشوارع فيها الكاباريهات وصالات رقص البطن...

وكانت السماء قد أخذت تمطر عندما غادرت الـ«سيلفر ستار» مرفأ الكويت في الليلة الأخيرة من العام، على نغمات الأنخاب والكؤوس المترعة بالخمر السويدية. فما إن أفقت من سباتي صباح اليوم الأول من كانون الثاني ١٩٤٩ حتى وجدت نفسي لا في عام جديد فحسب، بل في حقبة من التاريخ جديدة. ذلك بأن العراق، على الرغم من أنه يغصّ أو يكاد بالآثار القديمة، هو دولةٌ عصرية.

# ٥. بين البصرة وبغداد

عندما انبثق النظام الشمسي، آخر الأمر، من السديم الداكن أو من أيما شيء آخر سبَّب العهدَ الجليديّ الأخير، نشأت عن المجاري التي أحدثتها رُكامات الجليد الذائبة أنهارٌ عديدة، ولكن الفرات ودجلة والنيل اجتذبت فيما يبدو جميع مَن بقي من البشر على قيد الحياة في هذا الجوار الحار نسبيًا، وأتبع الإنسان وأُسَرُهُ خط الجليد المنكفئ من المنطقة التي تؤلف اليوم الخليج الفارسي ودلتا النيل لينشئ مدن سومر ومصر، لأن تاريخ الإنسانية المدوّن بدأ هناك.

والحق أن العراق، أو بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات - كان منذ عهوده الأولى أرض ريٍّ وقنوات. فقبل ميلاد المسيح بألفي سنة سنّ حمورابي شرائع تلقي على المواطن تبعة المحافظة على نظام الريّ. ففي ذلك الحين، وطوال آلاف من السنين قبله، انتهى العراق إلى أن يصبح بلدًا آهلًا بالسكان بفضل هذا النظام البديع من القنوات والسدود. وليس يدري أحدٌ من الذي أبدع نظام الري ولا متى أمسى ذلك ضروريًا. وفي فترة أمعنَ في القدم طبعًا، قبل أن تخرّب الفيضانات السنوية قشرة الأرض الخارجية والغابات، كانت في العراق، من غير ريب، سلسلة خصيبة من الأودية والسهول. ولكن قبل التاريخ المسطور بعهد طويل أُكره الأهلون على أن يحفروا الخنادق لجر مياه النهر إلى مزارعهم الظمأى، لأن زوال الغابات أثّر في المناخ تأثيرًا سيئًا فقلّت الأمطار وتباعدت الفترات ما بينها. وهكذا كان العراق، منذ آلاف من السنين، صحراء يسيطر الإنسان على خصبها





الاصطناعي. وفي عهود الازدهار، أيام البابليين أولًا ثم أيام الخلفاء بعد ذلك، بلغ مجموع السكان في العراق نحوًا من ستة عشر مليون نسمة. ولكن هولاكو خان غيّر ذلك كله.

فإلى سنة ١٢٥٨ بعد الميلاد عُني أهل العراق بقنواتهم وفقًا لشريعة حمورابي. وقد جاء فيها:

«إن الرجل الذي يهمل أمر العناية بسده بحيث يؤدي فتقه إلى إتلاف غلات جيرانه يدفع لجيرانه ثمن ما أتلف من غلاتهم... أما إذا لم يكن في ميسوره أن يعوض عن تلك الغلال من مخازنه فيلزم بدفع الدين إلى المتضررين، وإن لم يفعل بيعت أسرته في سوق الرقيق...»

ودارت الحياة في بابل على محور نهريها التوأمين. ولكن النهرين التوأمين كثيرًا ما حملا الموت إلى البلاد أيضًا. ذلك بأن بعض الفيضانات الكبرى كان يغرق الماشية والناس ويهدم المنازل والأبنية. وفي فصل الربيع كانت السيول العارمة تتدفق من جبال تركية وإيران وسورية، فإذا بمياه دجلة تصبّ في بعض الأحيان ستة آلاف ياردة مكعبة في الثانية، في حين تصبّ مياه الفرات نحوًا من أربعة آلاف ياردة.

والواقع أن أمثال هذه الكوارث المتعاقبة يسّرت على العلماء دراسة أحوال العراق قبل التاريخ، لأن سكان بابل كانوا إذا ما رأوا إلى ركام الحجارة المتهدمة التي كانت بيوتًا لهم يأوون إليها، عمدوا إلى استنقاذ ما يستطيعون من أثاث منازلهم وأدواتها وشيدوا بيوتًا جديدة من المادة نفسها فوق أنقاض المنازل الأولى. لقد نجت أرضهم، على أيّ حال، من الخراب. ومستوى البناء المرتفع قد يكفل لهم سلامة إضافية حين يقع الفيضان التالي.

وللطوفان التوراتي «الذي خرّب حياة العالم باستثناء نوح وأسرته» نظائر كثيرة في جميع الحضارات المعروفة تقريبًا. ولكن ثمّة قليلًا من الشك في أن الرواية التوراتية يمكن أن تُردَّ إلى بابل. وفي العصر

الحديث أثبتت الحفريات التي جرت قرب موقع المدينة القديمة أن حالةً من الفيضان كانت قد جعلت الأراضي المجاورة غير صالحة للسكنى طوال عقود عديدة. وكشفت أعمال الحفر عن التنضّد المعتاد في مستويات الأبنية إلى عمق ثلاثين قدمًا تقريبًا، حيث وجد المنقبون بدلًا منها، على عمق أحد عشر قدمًا فقط، طينًا غريليًا[١]. وعلى اثني عشر قدمًا - أو على نحو اثنين وأربعين قدمًا من السطح - كُشِفَ النقاب عن أبنية أخرى من ضرب مختلف اختلافًا طفيفًا لِيُستأنفَ التنضّد الطبقيّ Stratification بعد ذلك. ومن هنا نرى أنه طوال مدةٍ ترسّب فيها اثنا عشر قدمًا من طين النهر كانت مدن العراق مغمورة بالمياه.

وفي ذلك الحين كانت بابل تعرف عند السكان باسم كادينجيرا Ka Dingirra، وعند ساميي شبه الجزيرة العربية باسم «باب إيل» وكلا الاسمين معناه «باب الله».

وظلت بابل هيكلًا لآلهتها إلى ما بعد خراب المدينة نفسها بزمن طويل. وعلى نقيض بغداد، لم تدمَّر بابل بأيدي فاتحيها من الفرس والإغريق. فقد استسلمت في وداعة لداريوس الكبير واحتله جيش الإسكندر بعد انتصاره في أربيلا[٢] وكان الإسكندر قد أقنع نفسه، آنذاك، بأن كاهن زيوس - آمون المصري على صواب، وأعلن نفسه إلهًا. ولكن وفاته بعد بضع سنوات بالملاريا أو بذات الجنب أو بالسمّ أدت إلى زوال آلهة بابل، إذ أُهملت منذ ذلك الحين هياكلها ونُهِبَ آجرّ الأبنية والقصور لبناء قصور الملوك السلوقيين الذين خلفوه. ويقال إن مدينة الحلة، قرب بابل، بُنيت كلها من الآجرّ البابلي.

فإذا انتقلنا من الفرات إلى دجلة وجدنا خرائب المدائن في

---

(١) يراد بالغريل، في الجيولوجيا، الطين أو الحصى أو الحجارة أو غيرها مما تجرفه السيول والأنهار. وتطلق اللفظة غالبًا على المواد التي رسبت من المياه العذبة في الأطوار الجيولوجية الحديثة. [المعرب]

(٢) قرب نينوى حيث هزم الإسكندر جيوش داريوس الثالث عام ٣٣١ ق.م. [المعرب]



«سلمان باك» قرب بغداد، ولكنها دون بابل روعة وعظمة. والواقع أن قاعة الملوك السلوقيين الكبرى بقوسها الفخم العجيب هي كل ما تبقّى باستثناء الخرائب القائمة تحت سطح الأرض. وتقيم الحكومة العراقية حرسًا حول القاعة الكبرى. ويتغنّى عازفو الكمان العرب، المكفوفو البصر، بالروائع السالفة. ولكن بابل كانت قد بلغت نهايتها حتى قبل عهد الإسكندر، ليرتقي العراق قمة المجد من جديد بانطلاق الإسلام من شبه الجزيرة العربية.

ولد محمد عام ٥٧٠ أو ٥٧١ ب.م. فلم ينتصف القرن السابع حتى نفذ الإسلام إلى كل زاوية في شبه الجزيرة العربية. ولم ينتصف القرن الثامن حتى نفذ إلى طول العالم المعروف آنذاك وعرضه، ما خلا غابات الروسيا والجزر البريطانية. لقد امتد من سمرقند والبادية السورية ومدن النيل إلى سهول فرنسا الجنوبية وكثبان إسبانيا ومراكش. وفي ما بعد حُملت كلمة القرآن، عبرَ الهند، إلى بلاد الصين والفليبين، بل إلى جزر التوابل في الأرخبيل الهندونيسي.

ولكن حين بدأ أتباع الرسول يختلفون في شؤون المعتقد والتفسير، كانت الخلافة قد انتقلت إلى بغداد. وكانت بغداد خربةً آنذاك، فينبغي أن يُجدَّد بناؤها. وعندما عيّن الخليفة المنصور موقع مدينته قرب ملتقى نهري دجلة وديالى، كان يُعيد في الواقع تشييد مدينة عُرفت باسم «بغدادو» منذ ألفين وخمسمئة سنة أو يزيد. وهكذا غدت بغداد الجديدة عاصمة العالم المتمدن وقُدِّر لها أن تسيطر على الإسلام طوال خمسة قرون.

وما هي إلا فترة حتى أنشئت مدارس للكيمياء وغيرها من العلوم، وبلغ الطب أوجه في جامعات بغداد. وشيدت المستنصرية، وهي أول جامعة غير مذهبية في التاريخ، على بضع مئة ياردة من قصر الخليفة. ولا تزال جدرانها قائمة - برغم وضعها الخرب - وكأنما تشهد على ما كان فيها من غرف تدريس ومنامة وما اتّبع فيها من اصول في تنظيم

مكتبات المطالعة تكاد تكون عصرية. وكانت أبنية الجامعة تنتظم، إلى ذلك، صيدلية مجانية وحمّامات ومطعمًا واسع الأرجاء. وفي عهد هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) وابنه المأمون (٨١٣-٨٣٣) بلغ العلم الإسلامي مرتبة رفيعة كان من ثمراتها أن غدت الكيمياء علمًا وكانت من قبل فنًا من الفنون. ويعود معظم الفضل في تطوير الكيمياء على هذا النحو إلى جابر بن حيّان المحفوظة كتبُه اليوم في المتحف البريطاني. ولقد كتب هذا العالم المسلم الذي دعي بحق جابرًا (المصلح والمنظم) كتبًا باقية يؤذن بعضها، في كثير من الوضوح، بأنه فهم طبيعة العالم الذرّية. قال[١]:

«حين يتحد الزئبق والكبريت ليشكلا مادة مفردة يحسب الناس أنهما تغيرا تغيرًا أساسيًا وأن مادة جديدة بالكلية قد تشكلت. ولكن الواقع غير ذلك. فكل من الزئبق والكبريت يحتفظ بطبيعته الخاصة - وكل ما يحصل هو أن أجزاءهما قد أضعفت واقترب بعضها إلى بعض اقترابًا شديدًا حتى لتظن العين أنهما قد شكلا مادة جديدة. ولكن لو استطاع المرء أن يوجد أداة تفصل ما بين هذه الأجزاء إذن لظهر أن كلا من الزئبق والكبريت قد احتفظ بشكله الطبيعي الدائم، فلم يتحول أو يتغير.»[٢]

وإلى جانب جابر هناك ابن سينا (أرسطو الطب) والكيميائيون الكبار الرازي والمجريطي والعراقي وغيرهم. وانتقلت الثقافة العربية إلى أوروبا من طريق الأندلس حيث أنشئت جامعات إسلامية أخرى. ولكن الإيمان الشعبيّ بالسحر والعرافة - هذا الإيمان الذي جعل العلوم الأوروبية وحشيةً غير إنسانية إلى ما قبل ثلاثمئة عام تقريبًا - حال دون الإفادة من هذه الثقافة إلا على أيدي أصحاب الكيمياء القديمة وصناعة التنجيم الذين تكتنفهم الأسرار.

(١) إضطررنا إلى ترجمة الكلام عن الإنكليزية لتعذر اهتدائنا إليه في الأصل العربي. [المعرب]

(٢) Holmyard, *Chemistry to Dalton*, Oxford University Press.



ولكن المغول استولوا على بغداد عام ١٢٥٨، فعرفت الديار الإسلامية منذ ذلك الحين عهدًا من الانحلال انتهى بالسيطرة التركية. وخضع العرب وثقافتهم الرفيعة الحساسة لسلطان الأتراك الأميين القاسي.

وفي هذا القدر من الكلام على التاريخ القديم كفاية. ولكن ليس في ميسور أحد أن يفهم العرب ووجهات نظرهم من غير أن يعرف هذا الأساس التاريخيّ، لأن العرب لم يتغيّروا إلا قليلًا في أربعة قرون، ليعودوا من جديد إلى المسرح السياسي وعظمة ماضيهم العريق لا تزال ماثلةً أمام أعينهم. وحتى هنا، في لحظة البعث، جوبهوا بالخيانة المتمثلة باتفاقية سايكس بيكو وانتداباتها، وأخيرًا بإدخال اليهود الأوروبيين، عنوةً، إلى فلسطين وإخراج العرب منها.

وأيًا ما كان، فهذه البلاد التي كانت في يوم مضى مهدًا للغرب وللشرق الأوسط معًا - أرض الفجر هذه هي اليوم بلدٌ عصري صاخب تضج في جنباته دندنة الحياة الحديثة. ففي بغداد، مدينة المساجد، اتخذ الأذان مظهرًا عصريًا إلى أبعد الحدود. فبدلًا من المؤذن المنعكس خياله الداكن على رخام المئذنة اللامع ينبعث النداء الموسيقي القيثاري، اليوم، من أمام مكيروفون قائم تحت سطح الشارع فإذا بمآذن المساجد جميعًا، وليس يقلّ عددها عن الخمسين، تردّد أذانًا واحدًا ليس غير!

وفي محاذاة شطّ العرب الأسمر تابعت الـ«سيلفر ستار» اجتياز المرحلة الأخيرة، في ما يتصل بي على الأقل، من هدفها. وإلى يمين النهر العريض تقع إيران، وغياض النخيل. وإلى يسار النهر يقع العراق وغياض النخيل أيضًا.

واتخذت الـ«سيلفر ستار» سبيلها المهيب بين صفوفٍ من النخلات الداكنة الخضرة، الفارعة الطول، منسّقةٍ تنسيقًا دقيقًا ومنبثقة من التربة السمراء القائمة على ضفتي النهر. لقد بدا وكأن تلك الغياض لا نهاية

لها، فهي تمتد إلى الأفق العريض وتنحلّ إلى كتلة جامدة من خضرة في وجه غمام الصباح الأزرق.

ولكن شط العرب كان يفور بالنشاط. فناقلات الزيت المنتسبة إلى الدول على اختلافها تجري في صف واحدٍ متثاقل سواء مع التيار أو ضده. أما حركة النقل المحلية فتمثلت أو كادت في نشاط السفن العراقية. ومن عجب أن عيني لم تقع، هناك، على أيما سفينة إيرانية في ذلك اليوم الأخير من عام ١٩٤٨.

وفيما نحن على منتصف الطريق إلى البصرة تقدم منا زورق الحجر الصحي العراقي، وانبثق منه طبيب راح يقابل الربابنة والمسافرين قبل أن يتصل بالملاحين. وههنا أوجستُ خيفةً. ذلك بأنّ برنامج «منظمة الصحة العاليمة» القاضي بأن يحمل المسافرون لوائح موحدة تؤذن بأنهم ملقحون ضد مختلف الأمراض لم يخرج إلى حيز الوجود إلا حديثًا، ولم أكن أملك مثل تلك الأوراق. وتلك كانت غلطتي أنا، لا غلطة أحد سواي، لأن شركة النقل لفتت نظري إلى ذلك قبل إبحار السفينة، ولكني لم أُلقِ بالًا لتحذيرها. لقد ترحلتُ كثيرًا فعلمتني الأسفار أن المحاجر الصحية في جميع البلدان تؤكد أكثر ما تؤكد على التقليح ضد الجدري. ومن هنا قلتُ لنفسي إنني إذا حصلت على شهادة تلقيح حقيقية ضد هذا الوباء أمنت المتاعب كلها.

وقبل سفري بيومين وفد عليّ صديق وأعلمني أن الرحلة التي كنت على وشك القيام بها تقتضي تطبيق كتاب الطب الوقائي كله. إذ يتعين عليّ، نزولًا عند إرادة منظمة الصحة العالمية، أن أتلقح ضد التيفوئيد والباراتيفوئيد، والحمى الصفراء، والكوليرا، والزُّحار (ديزنطاريا) وغيرها.

ووطنت النفس، على تجاهل هذه المسألة برمّتها لعدة أسباب: أولها أن وقتي ما كان يتسع لذلك كله - وهو يستغرق نحوًا من ثلاثة





أسابيع - ولم يكن يفصلني عن موعد الرحيل غير ثمانٍ وأربعين ساعة. وثانيها أني ما كنت أريد أن أُثقل على كبدي بهذه الحقن كلها.

وهكذا تلقحتُ ضد الجدري وحصلتُ (بطريقة ملتوية) على ورقة من تلك التي يسجل عليها الأطباء وَصَفاتهم. وكتبت عليها ما يفيد أني تلقحت ضد مختلف الأمراض السارية التي تخطر لامرئ ببال، وأن شيئًا لا يستطيع أن يؤذيني بعد اليوم إلا من طريق واحدة: رغبة الإنسان أو القانون في الإيذاء، وقد وُقعت هذه الوثيقة بسلسلة من الخطوط المنمقة التي لا تحل رموزها ثم طُويت لتنشر في ساعة الحرج. حتى إذا أقبل طبيب المرفأ استشعرتُ أن ساعة الحرج هذه قد حانت. ولم يكن أحدٌ قد أزعجني قبل ذلك، ما عدا طبيب المرفأ في الإسكندرية الذي ألقى على الشهادة المؤذنة بتلقحي ضد مختلف الأمراض السارية نظرةً تمور بالريبة قبل أن يأذن لدمائي غير الملقحة بالنزول إلى المدينة.

ولم تكن المقابلة طويلة. فقد سألني الطبيب - وهو رجلٌ بدينٌ قصير القامة ذو وجه بشوش - أن أجلس ليمضي هو في مهمته. وكانت إنكليزيته ممتازة. فتناول شهادتي التلقيحية ودوّن ملاحظة حولها في أوراقه. ثم وجه إليّ السؤال الذي توقعته: هل أحمل شهادة تلقيحية من شهادات منظمة الصحة العالمية؟ فأقررتُ بأني لا أفعل، فاكفهرّ وجهه، وقال إن الأوامر الصادرة إليه تقضي بأن يحمل جميع زائري العراق شهادات تلقيح، فأجبته قائلًا: إذا كانت المسألة قاصرة على ذلك ففي استطاعتي أن أقدّم شهادة بهذا المعنى. قلت ذلك وأخرجت شهادتي المطوية.

وتناول الطبيب تلك الورقة، فأخذه الذهول بعض الشيء، وحدجني بنظرة خاطفة، ثم استأنف قراءتها. حتى إذا تمّ له ذلك رفع عينيه نحوي كرةً أخرى وارتعش فمه ارتعاشًا طفيفًا وهو يغمغم:

«تدري، قد تكون هذه الشهادة كافية حقًا...» وألقى نظرةً أخرى

تكاد ترشح بالإجلال، على تدبيري الملفق ذاك، «ولكنك أول رجل في العراق لا تترك طهارته المشهود بها عملًا ما للصناعة الطبية... من أجل ذلك أدعك، يا صديقي، للرجل الذي زوَّدك بهذا الاعتراف!».

ونهض الطبيب عن كرسيه، وانحنى في احترام، وأومأ بيده إلى الباب. فخرجت حاملًا أوراقي معي.

ولم أحتج إليها بعد ذلك قط، ذلك بأن أحدًا في الشرق الأوسط لم يتكشّف عن اهتمام بالغ بأمر تلقّحي ضد الأوبئة، منذ ذلك الحين. وبسبب من هذا ألقيت شهادتي المزورة في عرض البحر، بعد بضعة أشهر، بين بيروت وأثينا!

* * *

وصلنا إلى البصرة عشية العام الجديد، فدعانا القنصل الأميركي إلى النادي المحلي فيها. كانت سهرة ماتعة حفلت بالغناء وبالويسكي الاسكتلندية. ورقص القوم شيئًا ما، حتى إذا وفد القنصل السعودي العام، وهو رجلٌ مهيب يرتدي عباءة سوداء مذهبة الحواشي ويعتمر كوفية بيضاء، ذكرتُ أني نُصحتُ بأن أبدي له رغبتي في الحصول على سمة إلى المملكة السعودية. فلقيني القنصل بأعظم الكياسة، ولكنه رفض مطلبي في لطف بالغ أنساني المسألة كلها. صحيح أني كنت أتوقع الرفض، ولكني ما كنت أحسب أني سأقع عليه مصوغًا في هذا القالب اللفظي الفاتن. حتى لقد وجدتني آخر الأمر مضطرًا إلى إزجاء الشكر إلى القنصل والانسحاب في تلطّف واحترام.

ووفد بعد ذلك حاكم المنطقة العسكريّ. وهو عراقي قريب إلى النفس يجيد الكلام بالإنكليزية ويتمتع بمعرفة تاريخية غزيرة. وكان يحزّ في نفس حمدي بك - وهذا هو اسمه - أمران: تطور الحرب الفلسطينية في غير صالح العرب، وذلك الصقيع غير الاعتيادي الذي عرفه العراق آنذاك والذي أتلف حديقة وروده إتلافًا كاملًا. وبرغم حزنه





هذا، دعاني الحاكم العسكري، ودعا روس غارلين، أحد موظفي شركة الطيران عبر العالم (T.W.A)، إلى غداء ممتاز في اليوم التالي. لقد وصف لنا القتال في فلسطين وتفرق كلمة الدول العربية بعد الهدنة الأولى، فلم تكن الصورة زاهية على الإطلاق. ثم استطرد إلى القول إن الحلم الجميل الذي راود العرب بعد هزيمة ألمانيا واليابان قد تبدد الآن بالكلية. وبعد خيانة فرنسا وبريطانيا للأمة العربية، فتح العرب أعينهم على خيانة جديدة من جانب الولايات المتحدة الأميركية. لقد بدا للعرب، وقد بُعثوا من جديد بعد غياب طويل عن المسرح السياسي، أنهم لا يلقون غير خصوم يناصبونهم العداء، وأصدقاء يخونونهم في الخفاء.

وكان روس غارلين وامرأتان أميركيتان من القاهرة كلِّف برعايتهما، قاصدين إلى بغداد في القطار الذي اعتزمتُ أن أستقله إلى العاصمة العراقية. فسعدتُ برفقتهم. وبفضلٍ من حسن وفادة مضيفنا وعناية شركة الطيران عبر العالم T.W.A وفقنا إلى الحصول على زجاجة أو زجاجتين من الويسكي. وحين قدّم إليّ حمدي بك سلة من الفاكهة أستعين بها على الرحلة الطويلة شعرنا بأننا زُوِّدنا خيرَ زاد.

والمسافة بين البصرة وبغداد تبلغ نحوًا من أربعمئة ميل بالسكة الحديدية. ويمرّ القطار في طريقه ذاك بأور وبابل، ولكنه يجوزهما تحت جنح الظلام، فليس في ميسورنا أن نرى شيئًا. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر غادرنا مضيفنا وسط حديقته الوردية التي أهلكها الصقيع وامتطينا متن سيارة عمومية إلى المحطة حيث التقينا «الأمانتين» الموكولتين إلى غارلين، وهما سيدتان فاتنتان في ربيع العمر يعمل زوجاهما في مكاتب «شركة الطيران عبر العالم» في القاهرة. وكانتا في ما يبدو تنفقان إجازتهما في سياحة تقومان بها في العراق وإيران، على أن تغادرا بغداد، بعدُ، إلى طهران بالطائرة. ذلك بأن مطار بغداد لم يكن بقادر على استقبال الطيارات ذات المحركات الأربعة في سهولة

ويسر. صحيحٌ أن المطار شهد بعد ذلك إصلاحات غدت تمكّنه من استقبال الطائرات من مختلف الحجوم، ولكن شيئًا من هذا لم يكن قد تمّ عام ١٩٤٩.

وكانت إدارة السكة الحديدية تسيّر بين مدينتي العراق الرئيسيتين قطارًا مكيَّف الهواء مرةً أو مرتين في الأسبوع. ولم نكن قد أحسنّا اختيار اليوم. وأيًا ما كان ففي الساعة الرابعة تمامًا أقبل القطار، وبعد خمس دقائق انطلق بركابه المستريحين، قليلًا أو كثيرًا، في حافلات الدرجة الأولى ذات الأركان التي يتسع كل منها لأربعة مسافرين. واقتسمتُ أنا وروس ركنًا، في حين استقلّت السيدتان بركن آخر غير بعيد عنا. وفي الوقت نفسه لم يكن ثمة ما يحول بيننا وبين المشاركة في احتساء الويسكي والاستمتاع بالفاكهة في ركن واحد. وهكذا فعلنا.

وقدمت إلى كل منا ثلاث قسائم لوجبات ثلاث من الطعام. وكان طعام العشاء سائغًا ولكنه غير مثير: سمك مشويّ، ولحم ضأن، وسلطة، وحلوى، وقهوة. ثم ويسكي وفاكهة. وكانت عربة الطعام باردة فلم تكد الزجاجة تفرغ حتى انفضّ السّامر.

وأحسب أن الساعة كانت الثانية عندما شرعت القشعريرة تنفذ إلى عظامي. لقد أنفقتُ الهزيع الأول من الليل أكحّل الطرف بضوء القمر الذي يغمر الصحراء الرملية الواقعة ما بين البصرة وبغداد. وأخيرًا، حوالى منتصف الليل، استرخيت في فراشي الوثير، ذي البطانية المزدوجة، واستسلمت للرقاد. ولكن القشعريرة غلبت عليّ، فنهضت من نومي مرتعش الأوصال. وكان الفراشان المخفوضان يستغرقان المجال كله، حتى إذا حاولت أن أتلمس معطفي - وهو شيء ثقيل من صوف إنكليزي كثيف - لم أهتدِ إليه. فما كان مني إلا أن غطيتُ جسدي المقرور بممطر روس وبجميع الملابس التي نزعتُها قبل أن ألبس البيجاما. وكان الضوء المعتم فوق رأسينا غير مسعفٍ البتة. وكان مفتاح النور العادي قد أُخفي في براعة وتأنق. وعند الصباح - الصباح





القارس اللاذع - أفقتُ من سباتي لأجد أن روس قد اكتشف موضع المعطف وأنه لا يزال نائمًا تحته في دفء ورفهٍ يثيران الحسد!

وفي الميقات الموعود بلغنا بغداد، وامتطينا سيارة أجرة عبرت بنا النهر إلى المدينة القديمة حيث يقوم «أوتيل سندباد» في شارع الرشيد. ولقد حُدِّثت في الكويت عن أوتيل سندباد هذا، فرغبت في النزول فيه. إنه لم يكن خير فنادق بغداد، ولكنه بعيدٌ عن أن يكون أسوأها. ولعل مطعمه خير مطاعم العاصمة العراقية كلها. وأيًا ما كان، فقد وجدوا لي غرفةً ونزعوا أصابع الجليد المستدقة المتدلية من أنابيب الماء في الحمام، وجاءوا بأربع مدافئ لمساعدة الحرارة الضعيفة المنبعثة من جهاز التدفئة المركزية. كان ذلك الشتاء أقسى شتاء شهدته البلاد منذ خمسين عامًا. فقد هبطت الحرارة في بغداد إلى نحو من خمس درجات فوق الصفر بمقياس فهرنهايت[1]. وعلى أيّ حال، فهاأنذا في بغداد، نزلةً أخرى، ولشدّ ما تغيّرت بغداد عما كانت عليه في آب ١٩٢٨!

(١) إن الدرجة ٣٢ فوق الصفر في مقياس فهرنهايت تعادل درجة الصفر في مقياس سنتيغراد. [المعرب]

# ٦. في عاصمة الرشيد

لا يربط عاصمة الرشيد القديمة بماضيها غير حلقات منظورة قليلة. فالمدينة الجديدة المستلقية على ضفتي دجلة موطنٌ كثير الغبار ليس له طابع مميَّز غير مساجده وسوقه الكبيرة وبقايا الأسوار التي هدمها الأتراك العثمانيون في القرن السادس عشر. وعلى طول تحصينات «الباب الوسطاني» الرائعة تبدو المدافع وأكداس القذائف الحديدية وكأن المعركة الختامية لم ينقضِ عليها غير شهرٍ أو شهرين. وكلٌّ من تلك المدافع على اختلاف ضروبها وحجومها تحفة أثرية حقًّا. وقد صُنع بعضها في فرنسا، وبعضها في النمسا، ولكن كثرتها الكبيرة سُبكت في مصانع الحدادين العرب بدمشق.

ويرقى المسجد الجامع القائم قرب ساحة الملك فيصل الأول إلى العهود العباسية. ومئذنته المنحنية إنما التوت، في ما يقال، من أثر النيران التي أضرمها المغول الغزاة عام ١٢٥٨ بعد استيلائهم على المدينة. أما المسجد الملكي القائم عند الباب الشمالي من بغداد، فيمتاز بقبته الرائعة. وهو من أضخم المساجد في المدينة. والحق أن الجوامع، أو بيوت الله التي تُقصد ابتغاء التعبد والصلاة في المحل الأول، أقلّ زينة وزخرفًا، في الأعم الأغلب، من المساجد التي هي مدارس للتعليم الديني أكثر منها مجرد بيوت للصلاة، كمسجد الكاظمين الفخم بمآذنه الأربع الذهبية مثلًا.

وفي العراق مسجد كربلاء وهو مكان مقدس عند الشيعة. ففي كربلاء استشهد الحسين، ابن فاطمة بنت الرسول، بعد أن هزم الأمويون جنده المدافع عن حقه في الخلافة.



وتنقسم بغداد، مثل بابل القديمة على عهد نبوخذنصر، إلى بغداد الشرقية وبغداد الغربية يفصل ما بينهما نهرٌ هو ههنا نهر دجلة. وتستأثر بغداد الغربية بمعظم المعالم الأثرية: القصر العباسي، والسوق، والباب الوسطاني، وضريح من ذلك الضرب الشبيه ببيوت النحل يقال إنه يحتوي على رفات الملكة زبيدة زوجة هرون الرشيد.

وشارع الرشيد، هو شارع بغداد القديمة الرئيسي نفسه. وهو يمتد في موازاة نهر دجلة، وينهض فيه القصر العباسي، والسوق، والفنادق، كما تنهض في نقطة أبعد إلى الشمال الضواحي وبيوت اللهو، وهي نواد ليلية أنشئت على الطرازين الإيطالي والفرنسي حيث يقدم أهل الفن الأوروبيون والأوروبيات بضاعتهم، وهي عادة بضاعة من الدرجة الثالثة، ويقدّم المطبخ الجيد، إلى حدّ معقول، بضاعته. أما الملاهي العربية فمنثورة في طول العاصمة وعرضها. وكان أحدها يدعى «ملهى الروكسي» ويقع غير بعيد عن شارع الرشيد قرب «أوتيل سميراميس». ولقد زرت ذلك الملهى، وانتظرت حتى العاشرة، عندما بدأ البرنامج، ثم صبرتُ نفسي على ساعتين من الفكاهات غير المحتشمة والموسيقى الابتدائية التي تؤلف مقدمة لرقصات البطن، وهي مادة البرنامج الرئيسية. وفي بغداد ملاهٍ كثيرة غير «ملهى الروكسي» ولكنها متشابهة كلها، وزيارة إلى أحدها تغنيك عن أن تقصد إلى سائرها. وفيها أيضًا عدد من دور السينما المجهزة تجهيزًا فنيًا حسنًا، ولقد سعدتُ بأن أشهد فيلم «لص بغداد» (الذي استوحت هوليوود موضوعه من ألف ليلة وليلة) وأنا في تلك المدينة. وكان النظارة من العرب يغربون في الضحك طوال عرض الفيلم. ولكني لم أوفق إلى معرفة ما إذا كانوا يضحكون للشريط أم عليه. ذلك بأن الذين وجهتُ إليهم هذا السؤال كانوا من اللطف والكياسة بحيث لا أستطيع الاطمئنان إلى آرائهم. كان واضحًا أنهم حاولوا أن لا يجرحوا شعوري بوصفي أميركيًا.

وكان أوتيل سندباد، حيث قضيت القسم الأكبر من ثلاثة أشهر

عشتها في العراق، يقع في منتصف بغداد تقريبًا بين ساحة فيصل الأول ومستودعات «نفط الرافدين». إنه بناء ذو ثلاثة أدوار، شيد على شكل U مربعة تطلّ على دجلة. أما غرفه فتراوح ما بين الجناح - الواسع إلى الغرفة المفردة الصغيرة ذات الحمام. وقد نزلت واحدة مثل هذه تقع عند الطرف الجنوبي من الـ U فهي لا تستقبل الشمس إلا بعد الظهر. وحتى تلك الساعة المتوهجة كانت الغرفة أشبه شيء بجرار في ثلاجة. وبرغم المدافئ الكهربائية والمدد الموصول من المياه الحارة كان الشارع أكثر دفئًا من غرفتي بعد الساعة العاشرة قبل الظهر.

وكان الدور الأرضي ينتظم صالونات الاستقبال والمشرب والمطعم. وكان في المشرب، وهو الركن المفضل عند ضيوف العاصمة من مهندسي النفط القادمين من شبه الجزيرة العربية وكركوك، مستوقَدٌ صغير وبارٌ طويل، وعدد من الطاولات الصغيرة. وههنا حل الفستق الحلبي واللوز الأخضر محل فستق العبيد والبسكويت اليابس المملح. وكانت زجاجة الجعة التي تتسع لربع غالون تباع بأربعمئة فلس. وإذ كان هذا المبلغ يساوي أربعة أعشار الجنيه الإسترليني في وقت كان فيه الجنيه لا يزال مساويًا لـ ٤،٨٣ من الدولار، فقد تبدّى لي بعملية ذهنية بسيطة أن زجاجة الجعة تلك خليقة بأن تكلفني نحوًا من دولارين اثنين - وهو سعرٌ أكرهني على إيثار العرق الذي تباع الكأس الثقيلة منه بخمسة عشر سنتًا ليس غير. وكانت بعض زجاجات العرق تحمل علامات تجارية تمثل كبشين يتناطحان، وكأنما هي نبوءة بالذي سيقع في الصباح التالي. لقد كان واضحًا أن مقطِّر تلك الخمر كان واعيًا أتم الوعي حقيقة البضاعة التي يقدمها إلى الشاربين!

وكان المرء يستشعر الحاجة إلى شراب دافئ بعد غروب الشمس. وفي الصباح الباكر كانت الحرارة تحوم حول نقطة الانجماد، وكانت ثمة حاشية من الجليد على طول دجلة. وبعد فطور مخيف من البرتقال والليمون الحلو كان الفندق يقدم إلى زبائنه الإنكليز عصيدة من النوع





المعروف بالـ porridge ويقدم إلى غيرهم بيضًا وضروبًا من لحم الضأن. وكنت لا أفرغ من تناول فطوري حتى أرتدي معطفي الثقيل وأمضي إلى سراي الحكومة. فليس ينبغي أن يُنسى أني قدمت إلى العراق لأستطلع وجهة النظر العربية في حرب فلسطين. وفي كانون الثاني سنة ١٩٤٩ كان يرين على تلك الحرب هدوء قلق، وكنت أبتغي أن أمضي إلى الجبهة قبل أن تُعقد هدنةٌ موقتة بدت لي محتومة. أقول هدنة، لأني كنتُ واثقًا من أن الحرب لن تنتهي ما بقي في فلسطين شيء اسمه إسرائيل.

وجريًا مع نزعتي إلى أن أتأتّى للأشياء من سبيلها الصعب، قنعت قبيل سفري من نيويورك بسمة مرور أجازت لي الإقامة ثلاثة أيام ليس غير في الأراضي العراقية. ذلك بأن قنصل العراق العام عجز عن منحي سمة عادية تجيز لي أن أقيم في العراق ثلاثة أشهر، بسببٍ من اضطراره إلى أن يبرق إلى بغداد للحصول على ترخيص رسمي، وهو عملٌ يستغرق مدة تراوح ما بين عشرة أيام وأسبوعين. وإذ كنتُ واثقًا من قدرتي على أن أشرح للسلطات العراقية حقيقة أهدافي بمجرد وصولي إلى العراق، فقد قبلتُ في حبور تلك السمة العابرة التي تسبب لي الآن أشد البلاء.

وليس معنى ذلك أن السلطات العراقية ضيّقت عليّ الخناق. لا. لقد كانت غايةً في الكياسة. فبعد أربع وعشرين ساعة انقضت على تسليم الفندق جواز سفري إلى الشرطة استدعتني دائرة التحقيقات الجنائية العراقية. كان الصوت المتحدث على التلفون يملك ناصية اللغة الإنكليزية، وكان يقطر لطفًا، ولكنه يسألني أن أحضر إلى الدائرة في «أول فرصة تتاح لي».

وكانت دائرة التحقيقات الجنائية العراقية تقوم قرب القصر العباسي على ضفاف النهر، خلف فِناء يغصّ بالجماهير والحرس. وكان بعض الجنود العراقيين، المرتدين سترات من الكاكي البريطاني وبنطلونات

قصيرة تنتهي إلى الركبة وساقيّات[1] ملتفة فوق أحذيتهم العالية السوداء، يحرسون النقاط الستراتيجية هناك. حتى إذا سألتُ أحدهم، بالإنكليزية، أين أستطيع أن أقابل الضابط المسؤول، حيّاني تحية عسكرية واستدار على عقبه ثم غاب عن نظري في مجاز كان قائمًا خلفه. وبعد دقيقة ظهر من جديد يصحبه موظف مدني يتكلم إنكليزية عرجاء. وكررتُ سؤالي، فابتسم الموظف ابتسامة تؤذن بأنه فهمني، وقادني نحو سلّم وأومأ إلى باب الضابط المسؤول، ثم حيّاني وتركني أدبر أمري بنفسي.

كانت غرفة الضابط ملأى بالموظفين والمكاتب وأجهزة التلفون وكانت تمور بالحيوية والنشاط. أما في ما عدا ذلك فكانت جرداء قارسة. وكانت المصابيح المتدلية من السقف ضرورية لأن الغرفة كانت ذات نافذة واحدة. ولم يُزعج دخولي أحدًا من القوم، غير الضابط الذي كان يتوقع زيارتي.

كان يرتدي ثيابًا مدنية أنيقة، وكان حاسر الرأس، لطيفًا كيّسًا. وكان ذا شارب صغير داكن وعينين سوداوين وأسنان سليمة. وكانت ابتسامته ترشح بالمودة. حتى إذا جلستُ بعد أن فككت أزرار معطفي وأسلمتُ قبعتي وعصاي لأحد الحجاب، سألني ما إذا كنتُ أوثر القهوة أم ذلك الضرب من الشاي العراقي المضاف إليه قدرٌ من القرفة والسكر والليمون الحامض. وكان هذا الأخير يحتفظ بحرارته مدة أطول ففضلته. وفي الوقت نفسه أوضح الضابط لي بعض الحقائق.

لقد أخطأتُ، قبل كل شيء، بقبول سمة مرور من غير أن أتخذ أيّ ترتيب من أجل مغادرتي العراق. ولقد كنتُ، ثانيًا، أميركيًا وصحافيًا، والصحافيون الأميركيون موضع ريبة في العراق منذ الأشهر الأولى من الحرب عندما زار عدد قليل منهم بغداد فمنحتهم السلطات

(١) الساقيّة ما يلف على الساق من قماش أو غيره.





العراقية امتيازاتٍ أساءوا استعمالها. والذي يبدو أن هؤلاء الصحافيين غادروا العراق إلى تل أبيب وحيفا وكتبوا قصصًا سرّت الرقيب الصهيوني ولم تسرّ العرب بحال. وفوق هذا كله، فقد كانت معي آلتان من آلات التصوير.

وكانت المصوِّرات محظورة في العراق شأنها في مصر. وكان يتعين عليَّ أن أصرّح بوجود الآلتين معي وأنا بعدُ على ظهر الباخرة ليصار إلى وضعهما في عهدة الجمرك ريثما يُبتّ في أمرهما. ولم أكن عارفًا بذلك، ولم ينبهني أحدٌ إليه إلا بعد مغادرتي السفينة. ولم يسألني أحدٌ عنهما خلال مقامي في البصرة، أو أثناء رحلتي بين البصرة وبغداد. وعلى أيّ حال فقد كنت أملك آلتي تصوير غير مسجلتين، وكنت متهمًا بتهريبهما إلى البلاد. وكانت الآلتان في غرفتي بالفندق، فاقترحتُ أن أسلّمهما إلى دائرة التحقيقات الجنائية، ولكن اقتراحي رفض في لباقة ولطف. ونُصحتُ بأن لا أخرجهما من الغرفة إلا بعد أن يتبين وضعي ويتضح. ثم إن الضابط نهض من كرسيه وتمنّى لي نهارًا طيبًا، قائلًا إنه سوف يتصل بي في ما بعد.

وطوال أسابيع ثلاثة، قمت بزيارات يومية إلى مكاتب دائرة التحقيقات الجنائية، وخضعت لأبرع وألطف استنطاق عرفته في حياتي. ولقد كان خليقًا بالذين شهدوا التحقيق من رجال الجيش العراقي أن يعتقدوا أني والضابط صديقان قديمان التقيا بعد غياب، وأنه كان يسألني عن أسرتي وأحوالي. وكان ثمة دائمًا قهوة أو شاي. ولم تكن الجلسات لتطول أكثر من ساعة واحدة. حتى إذا انتهى ذلك التحقيق إلى غايته، في أواخر كانون الثاني، اجتمع لدى الدائرة ملفّ كامل عني، عن حياتي ومؤلفاتي.

وفي الوقت نفسه أُطلقت حرياتي واحدةً إثر واحدة. لقد رُفع الحجز قبل كل شيء عن آلتي التصوير. وعُيّن لي، من طريق علي باشا مدير الشرطة، ضابط بغداديّ شاب من رتبة ملازم ثانٍ ليرافقني بوصفه

رقيبًا ودليلًا وحاميًا في آنٍ معًا. وكان المفروض نظريًا أن يجد العراقيون حرجًا في التصوير الفوتوغرافي شأنَ المسلمين المستقيمين في شمالي أفريقية. ولكني وجدتُ أن هذا غير صحيح في العاصمة العراقية. فما أكاد أُخرج الكاميرا من صندوقها حتى يحتشد السابلة بمثل السحر، ويُضطر مرافقي إلى أن يُقصي الجمهور المتلهف حتى يصبح في ميسوري أن ألتقط صورة ما. ولكنّ الفرصة كثيرًا ما كانت تُفلت من يدي. فساحة الملك فيصل، مثلًا، ساحة نقل تقود إلى جسر فيصل الأول عبرَ دجلة إلى بغداد الشرقية. وكانت تنتظم عددًا من وكالات السيارات التي تعلن عن بضاعتها من «فورد»، و«ميركوري» و«كرايزلر» بلوحات ضخمة أميركية الصنع عُلّقت فوق الشارع. وإلى أدنى، عند سطح الشارع، كانت عين الناظر تقع بين الفينة والفينة على قوافل الجمال وقطعان الغنم، مما يذكّر بأن العراق لمّا ينفصل بعدُ بالكلية عن ماضيه الشرقي. وكنتُ أحبّ أن ألتقط بضعة رسوم لأمثال هذه المفارقات الغريبة الطريفة. ولكني لم أوفق إلى ذلك قط. فقد كان كثير من الصغار المفترة شفاههم عن ابتسامة، وكثيرٌ غيرهم من الكبار الفضوليين يعوقون المشهد ويحيلونه عن روعته إلى وضع أقلّ تعبيرًا وإثارة للشوق.

وكان الملازم الذي يرافقني يمثل معي دور ذلك البوليس السري الذي يكلَّف في بعض الأحيان بإغراء من تحوم حولهم الريب بالقيام بعمل غير مشروع لكي يصبحوا عرضةً للعقوبة. والواقع أن غرائز السائح تبدو دائمًا وكأنما تركّز نفسها على مظاهر الحياة الأكثر وضاعةً في البلد الغريب. وكان جماعات من الأطفال العرب الصغار، أبناء اللاجئين الفلسطينيين الذين ضُربَ عليهم البؤس والفقر، كثيرًا ما يبرزون أمامي بأنوفٍ راشحة وأقدام حافية شديدة القذارة، تحت أسمالٍ خَلقَة بالية، فيبتسم ملازمي العسكري ويقول: «لقطة جيّدة؟ شيء طريف؟» وأُضطر أنا إلى أن أقطّب جبيني في وجهه. وفي ما بعد،





عندما أردت أن ألتقط رسم نفر من البدويات ذوات الخدود الموشومة، وكنّ يسقن قطعانًا من الغنم والحمير، نهاني عن ذلك قائلًا «إنهن نسوة ليس غير، وإن الصورة الفوتوغرافية لكثيرةٌ عليهن». وأخيرًا وفقت إلى الحصول على إجازة من دائرة التحقيقات الجنائية وبها تمّت لي حرية العمل كاملة. وطوال أسبوعين اثنين كنت الأجنبي الوحيد القادر، في العراق، على أن يأخذ الصورة التي يريد. وحتى موظفو السفارة الأميركية شرعوا يرسلون إليَّ مصوّراتهم لكي ألتقط لهم بواسطتها صورًا لمساجد العراق وغيرها يضيفونها إلى «ألبوماتهم».

وخلال هذه المدة أُطلق جواز سفري من عقاله، فأقمت في بغداد، على نحوٍ شرعيّ، ريثما أوفق إلى الحصول على إجازة من وزارة الدفاع الوطني تمكنني من الالتحاق بالقوات العراقية في فلسطين. وهكذا زرتُ المدائن وبابل وصوّرت كل ما يحسن تصويره بالأسود والأبيض، وبالألوان.

وكان عليّ أن أواجه مشكلة تظهير الأفلام الملونة. وكان موظفو مكتب المعلومات الأميركي في بغداد قد أجازوا لي أن أستعمل غرفتهم الفوتوغرافية المظلمة وما تشتمل عليه من أسباب العمل. ولكن حرارة الماء خلقت مأزقًا ليس من اليسير الخروج منه. كانت المياه منجمدةً، ونادرًا ما كان ميزاني يسجل درجةً أعلى من ٤٥ فهرنهايت. ومن هنا فسد قسم كبير من الرسوم، واعتبرت نفسي سعيدًا حين مكّنتني مختلف الحيل التي اصطنعتها من إنقاذ ٦٠٪ من اللقطات.

وقامت وزارة الداخلية ببادرة تنمّ عن بالغ الكياسة واللطف حين أجازت لي أن أُفيد من طائرتي هيليكوبتر يقودهما أميركيان شابان، وكانتا تُصطنعان لأغراض النضح الجوي في المزارع الاختبارية بالزعفرانية، على مبعدة اثني عشر ميلًا من بغداد. والواقع أن المواصلات عسيرة في الشتاء في أرجاء الشرق الأوسط كله، لأن أولى ضحايا العواصف والسيول هي الطرق عادةً، فهي موحلة يعسر

اجتيازها. صحيح أن هذا الحكم لا ينطبق على الطرق العريضة المعبدة، ولكنّ هذه ما تزال ترفًا نادرًا، نسبيًا، في منطقة تعتمد مواصلاتها إلى حد كبير على الجمال والحمير والطرق النهرية.

وطائرات الهيليكوبتر مدهشة في ريادة الصحراء بخاصة. ولكن العيب الرئيسي في تينك الطائرتين اللتين وُضعتا في تصرفي أن طاقتهما على نقل مقدار صالح من الوقود كانت محدودة. ومن هنا كانت رحلاتهما قاصرةً على الأهداف الواقعة على مبعدة ساعة أو نحوها من قاعدة انطلاقهما. وأيًا ما كان، فقد أفدت منهما في رحلة قمت بها إلى عكرقوف، حيث التقطت مجموعة من الصور الملونة، الناجحة حقًا، للخرائب التاريخية.

وعكرقوف، الواقعة وسطَ المنخفض الجيولوجي العظيم الذي يحمل اسمها، لغز آثاري محيِّر. فبعض الثقات يعتقدون أنها أقدم عهدًا من «أرك» و«أريدو». وبعضهم الآخر يعتقدون أنها أحدث عهدًا من «أور» أو «بابل». وأيًا ما كان فإن خرائب، ذلك القصر أو البناء العام السامقة تؤذن بأنه شُيِّد من آجُرٍّ مجففٍ بالشمس ومن قضبان، وبأن سطوحه قد دُعمت بجسور خشبية كانت قد أُقحمت في الجدار الآجريّ الناهض تحتها. والحقّ أن البناء الرئيسي الذي ما يزال قائمًا بلغ ارتفاعه في وقت من الأوقات مئة قدم أو تزيد، وكان يهيمن على المنشآت المجاورة كما هيمن برج بابل على الأبنية المحيطة به في تلك العاصمة العريقة في القدم.

وكان الطياران قد ضاقا ذرعًا بالانتظار. وكانت مهمتهما مقصورة على مجرد نَضْح الفسائل والنباتات، من الجو، حين يُخشى عليها من الحشرات. وفي فصل الشتاء، لم يكن ثمة مثل هذا الخطر، فليس لديهما من عمل غير التحليق بي فوق الصحراء. وكان كلٌّ منهما قد رغب في أن يقوم بعمل من شأنه أن يخدم العرب أثناء الحرب، ولكن الحكومة لم تسمح بذلك. وكانا، شأني أنا، ناقمين شاعرين بخيبة أمل





مريرة. **فكنّا ننفِّس عن مشاعرنا الثائرة بأن نصبّ اللعنات على محتلي البيت الأبيض وأصدقائهم من الصهيونيين. لقد صعب علينا، ههنا في الشرق الأوسط، أن نصدّق أن حكومتنا يمكن أن تجازف بمستقبل الولايات المتحدة من أجل الحصول على الرشوة التي يقدمها إليها الصهاينة: أعني أصوات اليهود الانتخابية. كان في استطاعتنا أن نفهم دناءة الصحافة الأميركية، ولكن لم يكن في وسعنا أن نعذرها. أما أن تتردى إدارة حكومية في حمأة الدناءة وتضحي عن سابق تصور وتصميم بمستقبل الأمة الأميركية نفسها لكي تبقي أحد الأحزاب السياسية في محل السلطة، فهذا ما لم نستطع أن نفهمه أو أن نلتمس لها العذر فيه. لقد كان ذلك في نظرنا خيانةً لم يقترف مثلها أميركي من قبل، وهي لا تزال كذلك إلى اليوم عندي أنا شخصيًا.**

ولقد اكتشفت أننا لم نكن وحدنا نفكر هذا الضرب من التفكير. ففي مشرب (بار) الأوتيل الدافئ، وبعد غداء من السمك النهري وشرائح لحم البقر، كان الأميركيون القادمون من حقول الزيت في شبه الجزيرة العربية لقضاء إجازاتهم في العراق، أو العائدون من إيران بطريق بغداد، يجتمعون حول المشرب ويتناقشون في الأحداث الجارية بفلسطين. وكانت الفالوجة على وشك السقوط، آنذاك. ذلك بأن مقاومة الحامية المصرية الباسلة كانت قد أخذت تضعف شيئًا فشيئًا بعد أن نفدت ذخيرتها الحربية الخاصة بالأسلحة الخفيفة، وبعد أن أنهك الجوع قوى الرجال المدافعين عن موقعهم المحاصر. وكان واضحًا أن مصر سوف تجد نفسها مكرهةً في وقت قريب على أن توقع هدنة مع اليهود. وتبين أكثر فأكثر أن العرب قد خسروا الحرب عندما دعيت القوات الأردنية للعودة إلى قواعدها بعد ذلك الزحف الظافر الذي قامت به نحو البحر الأبيض المتوسط، وعندما التزم العرب أحكام الهدنة في حين خرقها الصهيونيون، وبذلك صار لهم سلاح جوي متفوق إلى حدّ غامر، وجيوش مزودة بالأسلحة الأوتوماتيكية الحديثة،

بل الممعنة في الحداثة.

ومن غير ما استثناء على الإطلاق، كان جميع الأميركيين الذين لقيتُهم في الشرق الأوسط، الآن وفي ما بعد، يستشعرون العطف على العرب، والحقد البالغ حدًا بعيدًا من المرارة، في كثير من الأحيان، على الأميركيين في الوطن الذين أيدوا الصهيونيين وناصروهم لأغراض عاطفية أو مادية. ونال **كل من دين أتشيسون وفيلكس فرانكفورتر نصيبه من النقد. ولكن اللعنات التي انصبت على رأس هاري ترومان فاقت كل ما عداها، سواء من حيث الحجم أم من حيث الصدق والحرارة القلبية.**

وكان أصحاب الفندق يراقبوننا في كثير من الذهول، ويراقبون كيف كانت الويسكي والجعة والعرق تزيد لهجتنا حدةً وعنفًا. صحيح أن إنكليزيتهم لم تكن سلسة، ولكنهم استطاعوا أن يدركوا فحوى الكلام، وليست المفردات اللغوية التي يصطنعها المشتغلون بصناعة الزيت معقدة جدًا. وكان أصحاب الفندق هؤلاء كلدانًا نصارى. والواقع أن الكثرة الكبيرة من الفنادق في العراق يملكها ويديرها الكلدانيون الذين يحفل تاريخهم بالاضطهاد بقدر ما يحفل تاريخ اليهود، ولكنهم لا يتخذون من ذلك، شأن اليهود، ذريعة للاعتداء على حقوق الآخرين.

ويبدو أن العراق يضمّ الكثرة المطلقة من الكلدانيين الذين خلّفتهم الأمبراطوريّة البابلية، وهو وضعٌ لا مجالَ كبيرًا للتعليق عليه لولا أن موطن الكلدانيين الآخر هو اليوم في ديترويت بولاية ميشيغين. والذي يظهر أن لكل كلدانيّ في بغداد أنسباء يعملون في مصانع السيارات بديترويت، وأن كثيرًا من هؤلاء المقيمين في بغداد عملوا فترةً ما في تلك المصانع. وكان جورج، حلّال المشكلات في فندق سندباد، قد قدّم إلى السفارة الأميركية طلبًا بالهجرة منذ أربع سنوات أو أكثر، وكان يتوقع أن يتلقى موافقةً على ذلك في كل لحظة. لقد تخيّر منزله منذ





الآن، وهو يعرف اسم الشارع وأين يقع وخصائص الجوار ورقم تلفون البيت. وإنه لمولع في الحديث عن هذا كله.

وحين تقدّم شباط نحو نهايته غدت الشمس أكثر دفئًا، ولم يعد من الضروري أن تهرع إلى الموقد، بعد طعام الصباح، لكي تحتفظ بقدر من رشاقة الحركة. وبين السيارة والهيليكوبتر وُفقتُ إلى أن أطوّف في جزء كبير من العراق، ولم أستشعر الأسف إلا لعدم تمكني من الشخوص إلى سامرا. وكان شيخ تلك المقاطعة قد دعاني، مرتين، إلى مرافقته إلى هناك في سيارته الكبيرة الفخمة من طراز «باكارد»، ولكن المطر حال في كلّ من المرتين دون ذلك لأن الطرق كانت أسوأ من أن تجوزها السيارة بعد أن تقطع الطريق العامة المعبدة. وكنتُ على مثل اليقين من أني إذا ما رأيت الشيخ بعد عودته من البرلمان – وكان عضوًا فيه – ودعاني لقضاء نهاية الأسبوع التالية في ضيافته فسوف تهب عاصفة من الغبار يوم الأربعاء، ليعقبها المطر يوم الخميس، وعندئذ يقضي الشيخ نهاية أسبوعٍ كئيبة في الأوتيل أو مع الأصدقاء. وهكذا ظلّ مسجد سامرا الجامعُ في نجوةٍ من آلتيّ المصورتين، ولكن بسببٍ من الأحوال الجوية ليس غير.

والواقع أن هذه المصادفة شغلت بال الشيخ بعض الشيء. لقد ذكّرته بتلك الأسطورة العربية القديمة التي اقتبسها ووسّعها كثير من الكتاب المحدثين، والتي يمكن أن نجعل لها عنوانًا «موعد في سامراء». ويحسن بي أن ألخصها هنا للذين لم يسمعوا بها فأقول: إن خادمًا قصد إلى السوق صباحًا فلقيَ عزرائيل يمشي بين الدكك التي تُفرش عليها البضاعة. ولم يكد عزرائيل يرى إليه حتى رفع ذراعيه، فخيّل إلى الخادم الشاب أنه يتوعده ويتهدده.

وفي ذعر ولى الخادم هاربًا إلى سيده، وحدّثه بالذي رأى، متضرعًا إليه أن يعطيه جوادًا يهرب على متنه إلى بيت أبيه في سامراء. ولم يضنّ عليه سيده بذلك، ولكنه لم يكد يقلّب الأمر في ذهنه كرةً

أخرى حتى أخذه القلق، فمضى بنفسه إلى السوق. وهناك ألفى عزرائيل يمشي مختالًا بين الخضر وآنية الخزف. فتقدم التاجر نحوه وأنّبه لِما سلفَ منه من تهديد لخادمه. فما كان من ملك الموت إلا أن تطلّع إلى الرجل في دهش وقال:

«أنا لم أهدّد خادمك، ولكني اكتفيت بأن رفعتُ ذراعيّ تعبيرًا عن دهشي لأن أجده هنا في بغداد، برغم أني على موعد معه، غدًا، في سامراء!».

وفيما كانت الأحوال الجوية آخذة في التحسن ازددتُ ضيقًا بتأخر وزارة الدفاع في البتّ بأمر الترخيص لي في الالتحاق بالقوات العراقية العاملة في الجبهة. فعلى الرغم من الهدنة كان لا يزال ثمة نشاط حربيّ عند ملتقى نهري اليرموك والأردن. وهناك كانت القوات السورية المفتقرة إلى السلاح قد أُمدت بكتيبة عراقية في تلك المنطقة التي عُرفت بالمثلث العربي. فإلى الجنوب من جبل حرمون وعلى طول الشاطئ الجنوبي الشرقي من بحيرة طبريا كانت الحرب تُشنّ في قطاع تاريخيّ، غير بعيد عن هضاب حطين الحافلة بعظام القتلى حيث هزم صلاح الدين جيوش الصليبيين هزيمةً منكرة في الرابع من تموز سنة ١١٨٧.

وفي تلك الأثناء قُدّمتُ إلى الزعيم (الكولونيل) عبد المطلب بك رئيس دائرة المباحث العسكرية العراقية. ولكني قُدّمت هذه المرة بوصفي صديقًا. وكان الزعيم عبد المطلب بك ودودًا كذلك. كان رجلًا بدينًا ذا وجه عريض ذكيّ، وشعر أسود جعد، وعينين دافئتين. وكان بوصفه حسن الثقافة، واسع الاطلاع، ذا عقل حصيف وفكر متطور، واحدًا من أكثر الرجال الذين لقيتهم في حياتي فتنةً وأسرًا، من غير شك. كان فكهًا ظريفًا. ولم يكن صموتًا، ولكنّ كلماته كانت تنطوي على قيمة، فأنتَ إن أخطأتها أخطأتَ كثيرًا مما يرمي إليه. وكان مكتبه يقع عبرَ مجازات ينتشر فيها الحرس واللوحات المعلقة على الجدران والمحذرة من جاسوسية العدو، ولكنه مؤثث في بساطة، فهو





لا يحتوي على شيء لا حاجة إليه البتة. ولم يكد المجلس يستقرّ بي حتى جاءوني بفنجان من القهوة العابق منها عبير حب الهال، ورحنا نتذاكر الأسباب التي تحدوني على دراسة الوضع الحربي في «المثلث العربي» من وراء الخطوط العراقية. وبعد ساعة من الحديث العذب وافق على أن يبسط رغبتي هذه لمدير الدفاع الوطني ويدعمها لديه.

وفي ذلك النهار نفسه اتصل بي سكرتيره ودعاني إلى تناول طعام العشاء مع الزعيم وصديق له. وفي «فندق قصر دجلة» احتسينا شيئًا من الكوكتيل وألوانًا من الطعام ممتازة؛ ثم أنفقنا بعض ساعات على الويسكي والصودا والحكايات. وفي موهنٍ من الليل سُئلت عن المواطن التي قُدِّر لي أن أزورها في العراق، فأشرتُ في الجواب إلى شيخ سامراء وإلى النحس الذي بدا وكأنه يحول دون ذهابي إلى هناك.

ومن تلك النقطة تقدمنا إلى الكلام على الحرب السيكولوجية أو النفسانية. وكان النقيب (الكابتن) مكي – وهو ضيف الزعيم عبد المطلب بك – قد درس في ألمانية وعرف شيئًا كثيرًا عن هذا الموضوع. والحق أننا اتفقنا جميعًا على أن العرب أخفقوا إخفاقًا ذريعًا في حقل الدعاية لقضيتهم. صحيح أنهم أنشأوا في واشنطن ونيويورك مؤسسة صغيرةً تكاد تكون عديمة الجدوى عُرفت بمكتب المعلومات العربي، ولكن هذه المؤسسة كان يعوزها المال، وكان القائمون عليها عربًا يجهلون القوى الجبارة التي توجه الدعاية الصهيونية بقدر ما يجهلون العقلية الأميركية. وهكذا ما لبثت هذه المؤسسة أن ألقت سلاحها في يأس، وقررت ببساطة أنها عاجزة عن مقارعة اليهود في هذا الميدان.

وهنا ذكرتُ أني قابلتُ الوزير العراقي المكلف بالإشراف على شؤون الدعاية، واكتشفت أنه لم يعمل شيئًا تقريبًا في العراق، ولم يعمل شيئًا البتة في الخارج. وحين سألتُ الوزير عما فعله للردّ على الدعاية الصهيونية في أميركا بسط يديه، ورفع عينيه، قائلًا:

«لا شيء على الإطلاق. لقد انضمت أميركا إلى المعسكر المعادي، وليس من فائدة ترجى من الدعاية فيها».

وابتسم الزعيم عبد المطلب بك والنقيب مكي لدى سماعهما هذا الحديث ابتسامةً كئيبة بعض الشيء. وللمرة الألف رحنا نناقش موقف أميركا من الحرب الفلسطينية.

ورأيتُ من واجبي أن أتولى أنا شرح الموقف، لأن كياسة مضيفي خليقةٌ بأن تحمله على الإحجام عن القيام بأيما مبادرة قد تجرح شعوري الوطني. ولم يكن ذلك أمرًا يسيرًا بالنسبة إليّ أنا أيضًا. ذلك بأن المرء قد يصب اللعنات على رأس حكومته حين يكون مع نفر من مواطنيه، ولكنه ما إن يجتمع إلى نفر من الأجانب حتى يتورع عن التجريح السافر والطعن البليغ. وأيًا ما كان، فقد أوضحت للضابطين العراقيين اعتقادي الشخصيّ بأن المسألة تتلخص بكل بساطة بأن الكثرة الكبيرة من الأميركيين لم تولِ المسألة تفكيرًا ما، وأن قليلًا منهم يفهمون أيما جزء من الأساس التاريخي الحقيقي لفلسطين والقضية الصهيونية فهمًا صحيحًا، وأن معظم معلوماتهم - أو مغلوطاتهم - عن الموضوع مستمدة من قراءتهم، وهم صغار، للتوراة أو «العهد القديم» في مدرسة الأحد والكنيسة.

من هذه الانطباعات المبكرة تقبّل معظم الأميركيين الرواية التوراتية من غير ما نقد أو تجريح. فوقع في وهمهم أن فلسطين كانت، تقليديًا، يهودية، وأن القدس مدينة يهودية. بل لقد ذهب بعضهم إلى حد الاعتقاد بأن أورشليم تعني مدينة اليهود. ومن ناحية ثانية، فإن قلة قليلة منهم كانت تعرف شيئًا عن العرب من غير طريق الأفلام السينمائية أو روايات أديث هول Hall. وقليلٌ هم الأميركيون الذين كانوا قادرين على أن يعطفوا كثيرًا على أمة تصوروا أنها تحيا في الصحراء وتجهل الحياة الحضرية جهلًا تامًا. وهنا أضفتُ قائلًا إنه لو عرف الأميركيون أن الكثرة العظمى من العرب تنزل المدن، بل لو عرفوا أن العرب هم







الذين أنشأوا الحياة الحضرية في العالم، إذن لاستولى عليهم الدهش. وعلى أيّ حال فإن الأساس الصحيح لهذه اللامبالاة التي يبديها الأميركيون نحو العدوان الصهيوني إنما يتمثل في ما علق بأذهانهم، منذ عهد الصبا الأول، من روايات التوراة وما تنطوي عليه من دعاية للعبرانيين.

ووجد الضابطان العراقيان أن عرضي للمسألة يتفق مع آرائهما فيها. وأشار عبد المطلب بك إلى أن الانطباعات، حتى الأجنبية منها، لا تقاوم في سهولة ويسر.

ثم إنه ضحك وقال:

«إنها تشبه إلى حدٍّ ما حاجي بابا وماكينته الذهبية».

فسألته:

«تعني حاجي بابا الأصفهاني؟»

فقال عبد المطلب بك:

«أجل. ولكن الجزء الثاني من الكتاب: «حاجي بابا في لندن». هل قرأته؟»

فسلّمتُ بجهلي له.

فقال عبد المطلب بك:

«ينبغي أن تفعل. فعندما رافق حاجي بابا أحد السفراء إلى لندن فرغت جيب الرجل الخبيث المخادع من المال، وعملَ ماكينة يفترض فيها أن لا تصنع شيئًا غير الليرات الذهبية. وبعد فترة قصيرة وجد رجلًا غنيًا شرهًا أبدى رغبته في شراء الآلة. ولكنه أصرّ على تجربتها أولًا.

«حسنًا، وكان حاجي بابا قد استعار ليرتين ذهبيتين من محفظة سيده ووضعهما خلسةً في الماكينة. وبعد شيء من الشعوذة والمهارة اليدوية جعل الماكينة تقيء ليرتين ذهبيتين، فأعجب المثري الطماع أعظم الإعجاب بهذه الآلة العجيبة، وسارع إلى دفع الخمسة الآلاف جنيه التي طلبها بابا ثمنًا لها، واستعد للمضيّ إلى منزله.

«وهنا ما كان من حاجي بابا إلا أن انتحى به زاوية وقال له في كثيرٍ من الصدق والإخلاص: «هناك شيء واحد لم أقله لك بعد، وهو على جانب عظيم من الأهمية. فاحفظ ما سأقوله لك الآن جيدًا. عليك كلما حاولت أن تصنع الذهب بواسطة الماكينة أن لا تسمح لعقلك أن يتصور، **مهما تكن الظروف**، حمارًا أبيض متدلي الأذنين. لأنك إذا تصورتَ ذلك مرة فسدت المحاولة وخربت الماكينة!»

فقال النقيب مكي بالألمانية:

«هذه دعاية بارعة!»

وأقررته أنا وعبد المطلب بك قائلين:

«أجل، إنها دعاية بارعة حقًا!»

وفي صباح اليوم التالي طرق صبيّ باب الغرفة، وأعلمني أن سيدة جميلة ترغب في التحدّث إليّ، وأنها الآن في ردهة الانتظار. وعلى الرغم من أنني اعتقدت بادئ الرأي أن في الأمر خطأ ما، فقد نهضت عن كرسيّي - وكنت أكتب رسالةً - وعقدت ربطة عنقي، ولبست سترتي، ثم هبطت السلم إلى ردهة الانتظار.

كانت «أقدس» عضوًا في إحدى الجمعيات النسائية العراقية، وكانت تعمل في حقل الصحافة. لقد اطّرحت «اليشمك» أو الحجاب، والعباءة الرتيبة السوداء، وارتدت زيًا غربيًا يذكّر المرء بالشارع الخامس في نيويورك، والشانزيليزيه في باريس. ولم تكن لتعدو الخامسة والعشرين من العمر، ولولا بعض الظلام الذي أخذ يظهر في عدسة عينها البلورية اليسرى إذن لكانت فتاة بارعة الجمال إلى حد متطرف.

وكانت «أقدس» قد تسامعت برغبتي في زيارة الجبهة من أحد معاوني الزعيم عبد المطلب بك، فهي تحب أن تأخذ مني حديثًا، وعلى أيّ حال، فلست أدري على وجه التحقيق أينا وجّه إلى الآخر عددًا أكبر من الأسئلة. وأذكر أني سألتها عن وضع المرأة في العراق. وكان ذلك شيئًا تتوقعه «أقدس». فما إن سمعت سؤالي هذا حتى







أغرقتني بفيض من المعلومات والإحصاءات. ولقد عرفتُ منها أن النساء في العراق إنما يلبسن اليشمك (الحجاب الذي يغطي النصف الأدنى من الوجه) لأنهنّ يؤثرنه، لا بسببٍ من رغبة أزواجهن فيه. وأنه ليس ثمة اضطهاد أو كبتٌ لحرية النساء في أيما مكان في العالم العربي، وأن الفتاة العراقية تقبل على التعليم الجامعي في لهفة حتى ليبلغ عدد الطالبات في الجامعة ثلث عدد المسجلين فيها من نساء ورجال.

وفوق ذلك حدثتني أقدس عن الصحافة في بغداد. كان ثمة عدةٌ من الصحف وصحيفة واحدة تصدر باللغة الإنكليزية، ولكن رجال الصحافة نادرًا ما يستطيعون الاجتماع بكامل هيئتهم لأن واحدًا منهم على الأقل يكون نزيل السجن، بسبب من مقال كتبه في نقد أعضاء الحكومة، مثل نوري السعيد باشا، رجل السياسة العراقية العجوز الداهية، أو أيما رجل آخر يؤيده ذلك الداهية. وقد جرت العادة بأن لا يطول مقام الصحفيين في السجن، وأن يُمنحوا الحرية في الحال، بعد أن يقضوا فترةً قانونية ما، وبعد أن يعبروا عن استعدادهم للاعتذار.

وكانت الصحيفة البغدادية الوحيدة الصادرة بالإنكليزية، واسمها «البريد» Post، نادرًا ما تنشر أيما شيء يؤذي أحدًا، ومن هنا لم تزر غير قلة قليلة من محرريها ومخبريها السجون العراقية إلا في مهامّ صحفية، طبعًا.

وقالت أقدس في شيء من الزهو:

«إن رئيس تحرير الصحيفة التي أعمل فيها نزيلُ السجن منذ شهر أو يزيد».

وفي اليوم التالي دُعيت إلى العرض العسكري الذي قامت به القوات العراقية في سهل رملي يقع على مبعدة ثلاثة أميال، تقريبًا، من بغداد. ولقد شهد العرض الوصي على العرش، الأمير عبد الإله، خال فيصل الثاني ملك العراق الشاب. ولم يكن الملك فيصل قد بلغ آنذاك

الخامسة عشرة من عمره، وكان يتلقى العلم في كلية «هارو» البريطانية، وكانت أمه الملكة عالية مقيمةً في لندن لكي تكون على مقربة منه. أما أبوه، الملك غازي الأول، فكان قد قضى نحبه عندما انقلبت به، منذ بضع سنوات، سيارة من سيارات السباق كان يسوقها في سرعة بالغة.

وتلقى الأمير عبد الإله علومه في كلية ڤيكتوريا بالإسكندرية حيث اكتسب شيئًا من «الرسمية القاسية» التي يتكلفها البريطانيون في خارج بلادهم، ومن هنا تجده لا يشارك ملوك شبه الجزيرة العربية وشيوخها في مسالكهم الديمقراطية الصارخة، مع الرعية. ولقد اضطرّ هو وحكومته إلى أن يغادر بغداد إلى القدس عندما ثار رشيد عالي الكيلاني ثورته المعروفة. ولكنه ما لبث أن رجع إلى العاصمة العراقية، بعد إخفاق تلك الثورة.

وتفصيل ذلك أن جزءًا كبيرًا من الشعب، وبخاصة الجيش، كان ناقمًا آنذاك على ما كان البريطانيون يتمتعون به من نفوذ في العراق. فقد نصت معاهدة عام ١٩٣٢ التي أنهت عهد الانتداب، على أن يضع العراق طرقه ومطاراته ووسائل مواصلاته كلها تحت تصرف بريطانيا زمنَ الحرب، وعلى أن يحتل البريطانيون مطاري الحبّانية والبصرة وغيرهما، وأن تعيّن بريطانيا ضباط «ارتباط» في العراق، كانوا يؤلفون في الواقع بعثة عسكرية تتمتع بقدر كبير من السلطة في وزارة الدفاع.

ووقع انقلاب رشيد عالي ربيع عام ١٩٤١. وفي الحال طَوّقت القوات العراقية مطار الحبانية، وأعلنت حالة الحرب بين العراق وبريطانيا. واستشعر البريطانيون خطورة الموقف.

وكانت حامية فلسطين البريطانية منثورةً آنذاك في شمالي أفريقيا والشرق الأوسط. وكانت سورية خاضعة للسيطرة الألمانية وقوات فيشي الفرنسية، وها هوذا العراق ينتقل إلى المعسكر المعادي. وإذن فلم يبق في صف الحلفاء غير شرقي الأردن وفلسطين.

وبرغم هذا استطاعت الفرقة العربية الأردنية، بقيادة المايجور





جنرال جون باغوت غلوب – وهو إيرلندي كورنواليّ[1] ذو دعابة مرحة ومعرفة مدهشة بأحوال العرب – أن تشغل القوات العراقية ريثما تصل الفرقة البريطانية التي قادها الجنرال كينغستون والتي قضت على الحركة. وما هي إلا فترة حتى رجع الوصي وحكومته إلى بغداد، وغادر رشيد عالي الكيلاني البلاد ليلجأ آخر الأمر إلى المملكة العربية السعودية. لقد حارب العربي أخاه العربي فلم يجدا في القتال متعة أو لذة. وبعد ثماني سنوات انقضت على تلك الأحداث، لا يزال الضباط العراقيون شديدي النقمة على البريطانيين، ولكن ليس ثمةَ ما يدل على أنهم سوف يقومون بثورة جديدة.

وبين الجيوش الصغيرة، يُعتبر الجيش العراقي واحدًا من جيوش الطليعة. وهو مزوّد بالأسلحة البريطانية، وبالمصفحات والطائرات البريطانية. ولكن ما يملكه من الصنفين الأخيرين قليل. ومن هنا لا يزال العراق يعتمد إلى حد بعيد على سلاح الفرسان الذي يتمتع بدربة فائقة للعادة وبمعدات كاملة. والواقع أن ميل العرب الطبيعي إلى الفروسية انضاف ههنا إلى التدريب النظامي الذي تتيحهُ مدرسة الفرسان الممتازة لطلابها، فكان لنا من ذلك الفارس العراقي الحديث. وليس من ريب في أن الفرسان العراقيين خليقون بأن يرفعوا رأس بلادهم عاليًا في أعمال الكشف وشنّ الغارات.

وقبل أن أصل إلى المكان الذي جرى فيه العرض العسكري – وقد وصلت قبل الوصي على العرش وأعضاء حكومته بفترة غير يسيرة – كان العمال قد أقاموا مجموعة من السرادقات الفخمة ذات الألوان النابضة بالحياة. وكان أوسعها وأبرعها زخرفًا يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدمًا، وعمقه أربعين قدمًا، وكانت له واجهةٌ مفتوحة يقيها رفرفٌ أو مظلةٌ عرضها خمسة وثلاثون قدمًا. وفي داخل السرادق مُدّت

(١) نسبة إلى مقاطعة كورنوال Cornwall في الجنوب الغربي من إنكلترة. [المعرب]

السجاجيد الشرقية الفاخرة ذات النقوش الملكية المنجّدة ليجلس عليها سمو الوصي والوزراء، وخلفَ ذلك الصف وضعت كراسيّ أخرى هي دون الأولى فخامةً ولكنها وثيرة مريحة ليجلس عليها النظارة من المرتبة الثانية. وأقبل النُدل بالشاي الساخن وبالقهوة. وكانت منضدةٌ صغيرة قد وضعت أمام كرسي الوصيّ، وعليها عدد من علب السجاير الإنكليزية والأميركية.

وطوال عدة ساعات، كنت خلالها أذرع المكانَ جيئة وذهوبًا ملتقطًا شريطًا سينمائيًا للاستعراض، مرت قطعات الجيش المدرعة أمام سرادق الأمير تتبعها فرق المشاة التي كانت تفصل حينًا بعد حين ما بين السيارات المدرعة، والدبابات الصغيرة، وسيارات الجيب. كذلك مرّت أمام السرادق عدة بطاريات ممتازة من المدافع المضادة للطائرات والأسلحة المضادة للدبابات. وعلى الجملة، فقد استغرق العرض العسكري ما يزيد على ثلاث ساعات. وكان كل امرئ سعيدًا به. حتى أنا كنت به سعيدًا، برغم العواصف التي كانت تصفع وجهي بالرمل، وبرغم التعب الذي استبدّ بي أثناء كرّي وفرّي اقتناصًا للصور السينمائية.

وكنتُ قد دعيت، قبل ذلك ببضعة أيام، لزيارة كلية الشرطة قرب بغداد. فقد سبق لي أن هنأت، صادقًا، مدير الشرطة علي باشا على الروح الممتازة التي يتحلى بها الشرطي العراقيّ، فكافأني على هذا الثناء بأن دعاني إلى زيارة كلية الشرطة التي يشرف على إدارتها رجل ينتمي إلى واحدة من أبرز الأسر العراقية، هي أسرة الراوي.

ولعل قوة البوليس العراقية هي في طليعة قوى البوليس في العالم أيضًا. فرجالها يُختارون على أساس من الذكاء والسلامة الجسدية والخُلقية في وقت معًا، ثم يُخضعون لأقسى التدريب على أيدي خبراء في مختلف أشكال العمل البوليسي، ابتداءً من تنظيم السير، إلى التمرينات الخاصة بالصراع الياباني المعروف بـ«الجودو» وباستعمال





الأسلحة الصغيرة، إلى إنقاذ ضحايا الحرائق وأصول الإسعاف الأوليّ. والواقع أن كل فرد من أفراد الشرطة العراقية يتكلم، عادةً، لغتين أو أكثر ويُلقّن أن مهمته هي حفظ النظام ومساعدة المواطن والأجنبي في كفاءة وكياسة. ولقد وجدت الشرطيّ العراقي ودودًا، مُسعفًا، وكيّسًا في مختلف الظروف والأحوال. وفي استطاعتك أن تقدر مدى كفاءة الشرطة العراقية إذا علمتَ أن الجرائم قليلة جدًا في بغداد، وأن المواطن والأجنبيّ يستشعران الأمن والسلامة في شوارع بغداد بعد أن يهبط الليل. وعلى أيّ حال، فالشرطي العراقي، بقبعته الضخمة الواقية من الشمس الشبيهة بالخوذ المغولية، يبدو مخيفًا لأول وهلة، ولكنّ شيئًا من الاتصال به ما يلبث أن يصحح هذه الانطباعة ويغيرها.

* * *

وأخيرًا أجازت لي وزارة الدفاع أن ألتحق بالقوات العراقية العاملة في الجبهة الفلسطينية. ففيما كنت أشهد استعراض الجيش العراقي أشعرتني وزارة الدفاع بذلك. وكان عليّ أن أكون عند مدخل الوزارة في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي لألتحق بالقافلة العسكرية القاصدة إلى فلسطين. وفي تلك الليلة، شخصت إلى مشرب أوتيل سندباد، واشتريت ثلاث زجاجات من الجعة، ثمن كلٍّ منها أربعمئة فلس. إن الغلاء لم يَهُلْني هذه المرة، فقد كنت ذاهبًا إلى الحرب!

# ٧. حديث مع غلوب باشا..

قضيتُ عشيةَ السفر من بغداد وأنا أُعدّ أمتعتي وأحرّر الرسائل إلى الولايات المتحدة. وإذ كنتُ لا أعرف على وجه التحقيق المواطن التي سيُجاز لي زيارتها ولا المواقيت التي سأزورها فيها، فقد اخترتُ فندق فيلاديلفيا في عمان قاعدةً لي وعنوانًا.

وينبغي أن نلاحظ أن فندق فيلاديلفيا هذا لم يسمَّ على اسم المدينة الأميركية، ولكن على اللقب القديم لمدينة عمان. ففي عصر السلوقيين الذين خلفوا الإسكندر حكم بطليموس فيلاديلفوس هذه الديار، وصارت عمان تعرف بفيلاديلفيا. أما في الأصل فكانت عمان تدعى «ربة عمون»، وذلك عندما سكنها المؤابيون أول ما سكنوها حوالى عام ١٣٠٠ ق.م.

وفي الميقات المحدّد وصلتُ وحقائبي الكثيرة إلى ساحة وزارة الدفاع حيث التقيت، صديقيّ العقيد مكي والزعيم عبد المطلب بك. ولم يكادا يلقيان نظرةً على حقائبي حتى هالتهما كثرتها، ولكنهما أخفيا ذعرهما ولم يقولا شيئًا.

ثم أن العقيد مكي مضى، تاركًا إياي مع الزعيم عبد المطلب و«أقدس» الفتاة الصحفية التي شقت طريقها عبر القافلة العسكرية إلى ساحة الوزارة. وكانت أقدس، في ما يبدو، راغبة في أن تمضي إلى الجبهة أيضًا لتزوّد صحيفتها بأنبائها، ولكنها لم تلقَ تشجيعًا من الزعيم.

وبعد قليل رجع العقيد مكي في سيارة شيفروليه جديدة من نوع «ستايشن واغون»، وألحّ عليّ في الدخول. وترجّل السائق، وهو عربيّ أشقر مكشّرٌ عن أسنانه، فحمل حقائبي وأخذ يكدّسها جميعًا، حتى آلتَي التصوير، على الرف. فما كان مني إلا أن أنقذت هاتين الآلتين،



في حين بقيت الآلة الكاتبة في موضعها مع سائر الأمتعة. ومن ذلك الحين لم تعد تلك الآلة ما كانت من قبل. وتبعني العقيد مكي، وهو رجلٌ رقيق قوي البنية بالغ النشاط، فجلس إلى جانبي في المقعد الخلفي. أما في المقعد الأمامي فجلس السائق وضابط من سلاح المشاة برتبة نقيب. وكان هذا الضابط لا يتكلم غير العربية وبضع عبارات إنكليزية، وكان ينفق معظم الوقت، خلال رحلة الخمسمئة ميل، وعيناه محدّقتان إلى الطريق.

وأخيرًا، وبعد ساعة انقضت على وصولي إلى الوزارة، تهيأت القافلة للمسير.. فهرع الزعيم عبد المطلب بك، وسط الحشود، وصافحني متمنيًا لي رحلة طيبة وصيدًا سمينًا. ولوّحت لي أقدس وهي في ثياب الترحّل الأنيقة وقد بللت الدموع خديها، مودعةً إياي في حرارة. ودوّت الصافرات، وهدرت الموتورات، وصدحت الأبواق وسط مجموعة متشابكة من الإيعازات العسكرية، وانطلقت بنا القافلة.

وإلى الأمام، كان في ميسوري أن أرى خطًا أفعوانيًا طويلًا من السيارات الخاكيّة ينعطف، مجتازًا الحرس الرافعين أيديهم بالتحية العسكرية، نحو الطريق المؤدية إلى الجنوب. وخلفنا كان خطّ من ناقلات الجند، وكانوا مبتسمين هاتفين يلوحون بأيديهم في حماسة بالغة. وكان بعضهم قد وضع فوق آذانه ورودًا أو أزهارًا أخرى. وكان الموكب بهيجًا مرحًا.

ولسوء طالع الجند كانت الطريق إلى الجنوب غير آهلة بالسكان، نسبيًا. ومن هنا لم يلوّح لنا فيما انطلقت بنا السيارات بسرعة أربعين ميلًا في الساعة غير نفر من الأطفال الصغار وسائقي الحمير. وعبرنا الفرات، جنوبي الرمادي، واجتزنا مطار الحبانية البريطاني، ثم انطلقنا عبر الصحراء إلى الرطبة حيث قال العقيد مكي إننا سنبيت تلك الليلة.

وكان الجنود الذين تقلّهم القافلة العسكرية قاصدين إلى الخطوط العراقية ليحلوا محلّ بعض الكتائب التي انقضت عدة أشهر على عملها

في الجبهة أو ليعززوا بعضها الآخر في المواطن التي اشتدّ فيها الضغط الصهيوني. وكانت معظم السيارات شاحناتٍ كبيرة، ولم يكن أيٌّ منها مسلحًا. وحين سألت العقيد مكي عن ذلك هز كتفيه وقال إنه لا يرى ما يوجب التزام حالة الاستعداد ما دامت القافلة لا تزال في الأراضي العراقية. حتى إذا بلغنا شرقي الأردن وفلسطين وعلمنا أن العدو يقوم بنشاط جوي فعندئذ نسارع إلى وضع المدفعية المضادة للطائرات على قدم الاستعداد. ولكن العقيد كان يتوقع أن تكون الرحلة آمنةً مطمئنة.

وكنا قد اجتزنا الفرات حوالى الظهر، وغدت الرحلة عبر الصحراء رتيبة مملة. وكانت الصحراء موحشة كثيرة الغبار لا تقع العين فيها، وفي أحوال نادرة، إلا على قرية بعد قرية قائمة قرب ينبوع أو واحة. وكانت الشمس حارة والنهار بالغ الجفاف، وكانت ريحٌ باردة تهب من الشمال فتعبث بأوراق النبات وبالغبار وتديرها في سرعة بالغة فوق شريط الطريق الأسود. وكان ثمة خوفٌ من أن تهب علينا، عما قليل، عاصفة رملية، ولكن ذلك الخوف ما لبث أن تلاشى بعد أن تقضّت ساعات الأصيل وئيدةً مثقلةَ الخطى. وكنت قد عرفت العواصف الرملية في بغداد، وشاركتُ جمهور الناس في كرهها. لقد كانت، في العادة، مقدماتٍ تمهد ليوم أو يومين من أيام المطر، ولكنها كانت في ذات نفسها مجلبةً لأشد الانزعاج. إنها تنطلق سحبًا كبيرة داكنة من الصحراء، فتستغرق بغداد وكأنها بطانية ضخمة ذات مسام، تنفذ إلى كل شيء.

وكنت أسارع إلى آلتي التصوير، عند أول إنذار باقتراب العاصفة الرملية، فألفّهما بالبطانيات لفًا محكمًا ثم أضعهما في حقيبة خشبية صنعها لي نجار «السيلفر ستار»، وأحيط هذه الحقيبة بأوراق الصحف وما إليها خوفَ الهباء الذي يوشك أن يغشى سماء بغداد، ويبعث في أرجائها رائحة تخيّل للناس وكأن مكنسة هائلة من مكانس السجاد قد أفرغت أحمالها فوق رؤوسهم. ليس هذا فحسب، بل إن العاصفة الرملية من شأنها، بعد أن يعقبها المطر، أن تجعل الطرق زلقة شديدة





الخطر، وأرصفة الشوارع غير صالحة للسير حتى يعاودها المطر فينظفها من جديد.

ولكن أسوأ ما في العاصفة الرملية رائحتها. وأذكر أن بعض العواصف الرملية كانت تسد منافذ الأفق حتى ليتعذر علي أن أتبيّن نهر دجلة، وليس يفصله عن نافذتي غير عشرين من الياردات. أما رائحة الغبار فكانت تنفذ إلى الهواء والطعام بل إلى الجعة أيضًا، حتى ليستشعر المرء أن النظافة تعوزه. ولم يكن في تذكُّر المرء أن العواصف الرملية كانت النتيجة الأخيرة لتدمير المغول نظامَ الريّ وبذلك خرّبت الصحراء المتجاوزة حدودها موارد الغذاء في البلاد بل أتلفت المناخ أيضًا – أقول لم يكن في تذكُّر ذلك ما يخفف كثيرًا من وطأة البلاء. وعندي أنه لو قُدِّر للقنوات والسدود القديمة أن تُنشأ من جديد إذن لتطور مناخ بغداد وغدا أكثر اعتدالًا، وإذن لكان من الجائز أن تختفي العواصف الرملية أيضًا.

وفي الطريق إلى الرطبة تضاءلت إمكانية هبوب العاصفة، ولكن قوة الريح بدت وكأنها تتعاظم فيما أخذت الطريق ترتفع ارتفاعًا تدريجيًّا بطيئًا. ذلك بأن بادية الشام تنهض فوق سطح البحر، وحين تؤذن الشمس بالمغيب مصحوبةً بريح هابّةٍ من الشمال، تهبط الحرارة هبوطًا كبيرًا. حتى إذا اقتربنا من الرطبة لاحظتُ أن الأشجار المشتتة ههنا وههناك كانت منحنيةً نحو الجنوب تحت ضغطٍ من ريح الشمال ما ينقطع. وكانت المنازل دانية السقوف، منفتحةً على الناحية الجنوبية، وكانت الأنوار لا تبدو إلا من وراء نوافذها وأبوابها الموصدة. ولم تَعُدِ الكلاب والدجاج تعدو في محاذاة الطريق المعبدة، مؤثرةً أن تظل قريبةً من بيوت السكان الأكثر دفئًا.

وقلعة الرطبة، التي عاقت تقدم القوات الأردنية عدة أيام أثناء ثورة رشيد عالي، محوطة بمجموعة من الثكنات. وواصلت القافلة سبيلها فيما انعطفنا نحن حول الطريق واجتزنا بسلسلة من مراكز الضباط

القائمة قرب حديقة صغيرة ولكنها موحشة. وكانت الريح عنيفة قاسية حاملةً ذراتٍ قارسة من الرمل. ولقد رحبت بنصيحة العقيد مكي حين أوعز إليّ بأن أجتنب التعرض للريح فيما كان السائق يخرج حقائبي من السيارة. وكان النقيب الذي يرافقنا قد اختفى في الحال، ليعود بعد دقائق قليلة فيصحبني إلى حيث أقابل قائد الموقع ورجاله. وكانوا جميعًا لطفاء جدًا. وكانوا مجموعة من المقاتلين الأشداء الذين ضرّستهم الصحراء، وكانوا يتكلمون قليلًا من الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية يُردفون به عربيتهم، وكان العقيد مكي يترجم لي كلامهم إلى لغته الألمانية التي كان يعسر عليّ فهمها في بعض الأحيان بقدر ما يتعذر عليّ فهم لسانه الوطني.

ولكنهم رحبوا بي، وأفردوا لي وللعقيد مكي مبيتًا في غرفةٍ مربعة مطلية بالكلس يبلغ طولها نحوًا من عشرين قدمًا وعرضها نحوًا من خمسة عشر. وكانت لتلك الغرفة نافذة شمالية زُوّدت بوقاء من الريح تعوزه الفعالية، فكان الغبار ينفذ من خلاله بين الفينة والفينة فيما تعبث العاصفة بزجاج النافذة.

وكان في الغرفة سريران عاريان، فلا فُرش ولا بطانيات، ولكن مجرد غطاءين ليس غير. ولم أكد أرى إلى ذلك حتى أيقنت أنه كان يتعين عليّ أن أحمل، إلى جانب آلتي التصوير والآلة الكاتبة، فراشًا يستريح جنبي إليه! ولكن الضابط الذي رافقنا في هذه الرحلة ما لبث أن برز حاملًا بعض البسط النظيفة ونشرها فوق السرير العاري. وبعد لحظة أقبلت البطانيات (ولعلها انتزعت من فرش الضباط العراقيين المرتجفي الأوصال)، ووقفت في وسط الغرفة وأنا أتنفس أنفاسًا منظورة وأرنو إلى الميزان لأرى أين أستقرّ الزئبق فيه. وفي الخارج، كان البرد قارسًا، والظلام دامسًا، وكانت الريح تعوي حول زوايا الأبنية. وكان أزعج شيء لديّ أن أفكر في ضرورة الخروج من ملابسي الدافئة لأحشر نفسي في ذلك السرير الذي يذكّر المرء بالقطب الشمالي.





وفي هذه اللحظة أقبل الجيش العراقي لنجدتي. فإذا بباب غرفتي بعض الجنود يحملون كوانين فولاذية ضحلة ذات قوائم يبلغ ارتفاعها نحوًا من ثمانية عشر إنشًا، مثقلة بركام من أغصان الصفصاف. ثم إنهم أضرموا النار فيها ووقفوا حولها، مستشعرين شيئًا من الحسد، باسطين أيديهم إلى الدفء الذي بدا وكأنما يُهدر في هواء الصحراء هدرًا. وسألت العقيد مكي - وكان ينزع ثيابه في لامبالاة إسبارطية بالبرد القارس - لماذا لا يوعز إلى الجند بأن يحملوا إلينا مجمرةً أو مجمرتين، فقال إن ذلك بعينه هو ما يفعلون. وحين سألته لماذا لا يحملون النار إلى داخل الغرفة قبل أن تخمد قال:

«لأنهم لو فعلوا إذن لقُتلتَ بالغاز الخانق في خمس عشرة دقيقة».

والتمست جوابًا بالألمانية، ولكني لم أوفق. وفي الوقت نفسه كانت حزم الصفصاف قد استحالت إلى مهادٍ وضاء من الفحم. وهنا أدخل الجنود النار إلى الغرفة، بعد أن جُرّدت من قدرتها على الإيذاء، ووضعوها على الأرض. وما هي إلا فترة يسيرة حتى انتشرت الحرارة في الغرفة وعمها الدفء. فما كان مني إلا أن نزعت ملابسي في سرعة قليلة الاحتشام واستسلمت للرقاد بعد دقائق قليلة.

وتشقق الفجر بصرامة منجمدة كصرامة جبلٍ من الجليد متبلور. كان أنفي الذي تشوّف إلى الهواء الطلق بحكم جوعه الرهيب إليه يخزني من البرد، وكانت أنفاسي تتدلى مثل سحابة تنشر الظلمة على الغرفة فلا أكاد أرى منها غير مجمرة استنفدت نفسها، وتراكم رمادها أسود مقرورًا فوق مهاده الفولاذي البارد. وتطلّعت عبر الغرفة التماسًا للعقيد مكي، ولكن سريره كان خاليًا. والواقع أن العقيد لم يكن قد استيقظ من رقاده فحسب، بل كان فراشه محزومًا أيضًا. وفي قنوط مرير أقصيت البطانيات الدافئة ولبست بنطلوني وجوربي وحذائي. وكان في الغرفة مغسلة فرنسية نموذجية: حوض من نحاس فوق قاعدة ثلاثية القوائم، ووعاء للصابون وأذرعٌ للمناشف. ولكنها لم تكن تحتوي على

أكثر من غشاوة رقيقة من الجليد. ورفعت صوتي مناديًا ولكنّ أيًا من الجند لم يلبِّ النداء. وكنت قد لبست، الآن، قميصًا، وطوقت حنجرتي بربطة عنق غير مناسبة، وارتديت كنزتين من الصوف وسترةً جلدية. وكانت ملابسي باردة، وكذلك كانت يداي وقدماي. ولم أكن قد غسلت وجهي، أو حلقت ذقني. ولم أبالِ بذلك، ولكنّ فمي لم يكن قد غُسِل أيضًا، وهذا ما أزعجني أكثر الإزعاج.

وكنت على أهبة أن أطلق صيحةً هادرةً حين وفدَ أحد الجنود، وقدّم إليّ فنجانًا من القهوة. إنه لا يشبه تلك «الكشاتبين» التي يقدمونها إليك في المملكة العربية السعودية وليس في قعرها غير مقدار ملعقة صغيرة من قهوة معطرة، ولا فناجين القهوة التركية الصغيرة الملأى بطين البن المسحوق المحلّى، الشائعة في معظم بلدان الشرق الأوسط. ولكنه فنجان إنكليزي كاملٌ من فناجين طعام الصباح ينبعث من جنباته الدخان، فهو أحلى من الأثم وأشدّ حلكةً من الليلة التي فاتت. وجرعتُه جرعًا، محرقًا شفتيّ ولساني ومزيلًا عدة إنشاتٍ مربعة من أنسجة الجلد عن حنجرتي، ولكنه كان أهلًا لذلك.

وفي الوقت نفسه، كان الجندي قد ملأ الحوض النحاسيّ بالماء الحار، ووضع قطعة من الصابون ومنشفة وموسى حلاقة استعيرت في ما يظهر من أحد الضباط أو الجنود. وبالواقع أن حقيبتي العسكرية كانت تنطوي على موسى وشيء من الصابون ومنشفة، وكنت على وشك أن أقدر إمكانيات مضيفيّ المحدودة فأحجم عن اصطناع ما قدموه إلي، ولكني تمثلت نفسي وأنا أعيد منشفتي المنجمدة إلى الحقيبة العسكرية، فتعاظمني الأمر، واطّرحت الفكرة.

حتى إذا خرجت من «مستودع الثلج» نظيف الوجه، حليق اللحية، مُفَرْشى الأسنان، كان الفطور قد أُعدّ. فقادني الجندي إلى مقرّ الضابط حيث كانت نارٌ رائعة، نارٌ نبيلة حقًا، تتأجج في المستوقد، وحيث أقيمت موائد طويلة لشراب الصباح. وكانوا قد أفردوا لي مكانًا





قرب القائد، ووُضع أمامي طبق يحتوي على شرائح من لحم الضأن، وجبن أبيض، وزيتون ناضج، ونصف خسة. وكان يقوم إلى جانب الطبق رغيف عربي أسمر القشرة مستدير يبلغ قطره نحوًا من عشرة إنشات، وكان ما يزال ساخنًا وكأنما خرج من الفرن اللحظة. وأذهلني الطعام بعض الشيء، أول الأمر. ثم استغرقتُ في التهامه. وتصبب من جبيني قليل من العرق، فنزعت سترتي الجلدية. وأتى العقيد مكي على طبقه، وتحدث إلى قائد الموقع حديثًا قصيرًا. ثم قدمنا احترامنا إلى الضابط وخرجنا التماسًا للدفء تحت أشعة الشمس. فلم يكن الجوّ هناك قارسًا شأنه في الداخل.

والطريق القائمة غربي الرطبة تقود إلى الحدود الأردنية، على مبعدة سبعة أميال تقريبًا، ثم تتصل بمحطة أنابيب حيفا رقم ٣. وكان خط الأنابيب، الذي بُني خلال الأيام المبكرة من الحرب العالمية الثانية، ينقل الزيت الخام من أحواض الخزن، في كركوك، إلى حيفا، عبر مسافة مترامية تبلغ نحوًا من ستمئة وستين ميلًا. ولكن العراق أغلق الصمامات في محطة الضخّ، في نوار ١٩٤٨، فانقطع تدفق الزيت على حيفا. وثمة خط آخر ينقل الزيت من كركوك إلى طرابلس، عبر مسافة مماثلة تقريبًا. ويفكر المسؤولون في أن يعوضوا على الخزانة العراقية ما أصابها من خسارة، إثر إغلاق الصمامات، بأن يضاعفوا مقدار النفط المنقول بواسطة خط أنابيب طرابلس. وأيًا ما كان، فقد أقسم العرب ليحرمُنّ الإسرائيليين من نفط الشرق الأوسط وبذلك يشلون مصانع التكرير في حيفا، التي يملكها البريطانيون ويسيطر عليها الإسرائيليون[1].

وإنما تقوم محطات الضخ التي تساعد على دفع الزيت إلى مستودعاته الساحلية على طول خط الأنابيب، ويفصل الواحدة منها عن

(١) استعاضت إسرائيل عن النفط العراقي، بادئ الأمر، بالنفط الروماني. ولكن تكرير النفط الروماني في مصافي حيفا ما لبث أن انقطع عام ١٩٤٩. ومن ذلك الحين أخذت ناقلات الزيت البريطانية تحمل الزيت من فانزويلا إلى حيفا.

الأخرى سبعون ميلًا تقريبًا. والحق أن تلك المحطات قرى صغيرة تضم مهندسي النفط ومساعديهم وأُسرهم. وفي المحطة الثالثة، 11-3 مطار كثيرًا ما كان يجتمع فيه الملك عبد الله عاهل شرقي الأردن إلى ابن أخيه الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق. وتذهب الأخبار إلى أن عدة مناقشات حامية جرت هناك بين النسيبين الملكيين. وعلى الرغم من أن بغداد وعمان ظلتا تشكلان معًا جبهة مشتركة، إلا أن آثار التصدع في تلك الجبهة كانت بارزة على نحو واضح جدًا.

والواقع أن الوصي العراقي، يدعمه ضباط جيشه، كثيرًا ما كان يحتج على مسلك الملك عبد الله في الحرب الفلسطينية. وفيما كنت أجهل آنذاك أن كثيرًا من الزعماء العرب كانوا يعتبرون الملك عبد الله مسؤولًا عن الانسحاب الأردني الغريب من ميدان القتال، كان كل امرئ في الجيش العراقي يعرف ذلك، في ما يبدو. ولقد سمعته من كثير من رجال هذا الجيش مرةً ومرةً.

ولكن لم يكن ثمة شيء في المحطة الثالثة الآن. فقد جُرّدت محطة الضخّ من آليتها ما خلا بعض الآلات المثبتة على نحو يتعذر معه نقلها. وكانت الأبنية والمنازل الخالية أشبه ما تكون بإحدى مدن الأشباح في مناطق التعدين القديمة في «الغرب» الأميركي. وكان المطار لا يزال قائمًا، وكانت الريح تعبث بالجهاز الممزق الذي كان يُصطنع فيه لتعيين اتجاه الرياح. ولكن الحدائق القائمة في مقدمة كل من المنازل لم يبق منها غير مجموعة فوضوية من النباتات الصغيرة الذابلة.

وحين غادرنا المحطة الثالثة اجتزنا عددًا من الكثبان غير المستوية، كانت رمليةً أول الأمر ثم انقلبت بعد ذلك صخرية بازالتية[1]. ولم يكن ههنا شيء. لا حياة البتة. كنا من قبل نرى بين

(١) البازالت: ضرب من الصخور البركانية السوداء. [المعرب]



الفينة والفينة ثعلبًا، أو هرة برية، بل وحتى ابن آوى أو بضعة غزلان. أما الآن فليس ثمة شيء. لا عشب، ولا رمل. ولكنْ هذا الدليلُ الانقلابي على جيولوجية مشوهة، ليس غير. لقد كاد ذلك أن يكون مروِّعًا.

ففي وقت ما، لعدة آلاف من السنين خلت، في أغلب الظن، نسفت الطبيعة من طريق سلسلة من الانقباضات الهائلة قشرة الأرض الغرانيتية في مساحات تقدر بمئات عديدة من الأميال المربعة، مطلقةً البازالت السائل نحو الهواء وكأنما ينبع من عين جحيمية ما. وليس من ريب في أن أيما مدينة كانت قائمة هناك خليقة بأن تكون قد دمرت تدميرًا، لأنه ما من شيء يستطيع أن يحيا وسط طوفان من الغرانيت والبازالت الذائبين المنقضّين من السماوات المتخمة.

وهنا ذكرت ما كنت قرأته في بعض المصادر عن هجرة غريبة تدفقت موجاتها من الشمال الغربي على «سومر» حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.، وتساءلت ما إذا كان أولئك المهاجرون الذين انتهوا إلى العراق وليس لهم ما يكشف عن هويتهم أو ثقافتهم هم أنفسهم سكان هذه المنطقة الأقدمون الذين وفقوا إلى النجاة من ثورة الطبيعة التي اضطرمت نيرانها ههنا في يوم من الأيام؟..

وطوال ستين ميلًا تقريبًا تقدمنا عبر هذه الأراضي التي يطلق عليها العرب اسم «إقليم الأموات» لننتهي آخر الأمر إلى المحطة الرابعة (H-4) فالمحطة الخامسة (H-5)، فالمطار البريطاني القديم في «المفرق». وهنا اتجهنا جنوبًا في محاذاة الخطوط الأمامية قرب بحيرة طبريا، لنصل بعد ساعة أو نحوها إلى مقر قيادة القوت العراقية في الزرقا عند نهر الزرقاء التاريخي الذي كان يدعى من قبلُ «يبوق» Jabbok.

وفي الزرقا استُجوبت استجوابًا موجزًا، ولكن العقيد مكي شهد لي لدى القائد، مقدمًا إليه أوراقًا تتصل بي من غير ريب، لأن القائد لم يكد يطّلع عليها حتى أخذ يعاملني في ودّ غامر. ثم إنه سألني، في

إنكليزيّة ممتازة، عن خططي، وتطوّع لتزويدي بأسباب المواصلات وبكل ما يملكه من وسائل تيسّر لي مهمتي. بيد أني كنت راغبًا، تلك اللحظة، في أن أمضي إلى عمان قبل أن يدركنا الليل.

وتقع الزرقا على ارتفاع بضع مئة قدم عن سطح البحر. وكان المطر قد أخذ في التهطال، ليمازجه البَرَد بعد ذلك. ولم أكن أدري على وجه اليقين ما المسافة التي تفصلنا عن عمان. ولكنْ تراءى لي أن علينا أن نقصد إليها مهما كلف الأمر. وأخيرًا أنجز العقيد مكي مهامه ورجعنا إلى سيارتنا، في شيء من تصلّب الأوصال، فتعثرنا بآلتي التصوير وبكيس ورقيّ مليء بلحم الضأن المحمَّر كان بعضهم قد قدّمه إلى العقيد في الرطبة. وكانت أشعة الشمس، والحرارة المنبعثة من السيارة قد أسالت الدهن فتسرّب من خلال الكيس الورقي ورصّع أحسن سترة من سترات العقيد. فلم يكد يرى إلى ذلك حتى أخذه الحنق وألقى بكيس اللحم بعيدًا على الطريق حيث وجدته بعض الكلاب والتهمته. وكم ندمت على أننا لم نحتفظ به لبعض اللاجئين.

وخلال المئة الميل التي اجتزناها كانت خيام اللاجئين المرتجلة تؤلف مشهدًا يتكرر في تعاقب متعاظم على طول الطريق. **والحقّ أن ما وقع بصري عليه مرةً، وحسبته لأول وهلة كتلةً من ثياب ممزقة بالية، لم يكن كذلك. ولفتُّ نظر العقيد مكي إلى ما رأيت، فأوقف السيارة وهبط منها هو والسائق وراحا يفحصان «الصرة». لقد كانت كل ما تبقى من امرأة عربية وطفلها. وكانت الثعالب وبنات آوى قد التهمت لحمهما ولم تغادر منه غير القليل. وكذلك عثرنا على «صرر» أخرى تثير الشجون ولكنا لم نحاول الكشف عنها. ولم يكن فيها جميعًا أيما أثر من آثار الحياة.** والواقع أننا ما شاهدنا خيام اللاجئين الفلسطينيين الذين آثروا أن يضربوا في الصحراء متجهين إلى بغداد على أن يموتوا جوعًا في مخيمات شرقي الأردن وسورية المكتظة باللاجئِين، إلا بعد أن اجتزنا المحطة الرابعة (H-4). ولكن قلةً قليلة منهم وفِقت إلى أن





تبلغ بغداد. وكان أولئك الذين رأيناهم الآن، قانعين بمجرد الجلوس أمام خيامهم والتحديق إلينا. **إن أحدًا منهم لم يلتمس منا عطاء أو صدقة،** ولكن الجنود العراقيين ألقوا إليهم ببعض الطعام، وبعض الملابس، من القافلة العسكرية.

وفي الزرقا لم نجد أيًا من اللاجئين. وكان أقرب مخيماتهم إلينا ذلك الذي يقوم في المفرق. ولكني علمتُ أنني سوف ألقى آلافًا منهم في عمان. فقد أخبرني العقيد مكي أن عدد سكان شرقي الأردن تضاعفَ بالمعنى الحرفي للكلمة، خلال الأسابيع القليلة التي عقبت مجزرة دير ياسين، عندما تدفق على الحدود الأردنية، أربعمئة ألف لاجئ عربي من فلسطين. والتجأ عدد آخر من الفلسطينيين يقدّر بمئات الألوف إلى الخطوط المصرية وإلى سورية. وهناك في الأردن حُشروا جميعًا في مختلف الأمكنة التي كان في مستطاعها أن تؤويهم. فعاش بعضهم في مغاور للوحوش كان الرومان القدماء شقوها في مسرحهم الذي شيدوه في عمان، وفي الهياكل القديمة الخاصة بالآلهة والإلاهات الإغريقية الرومانية. وفي كل مكان في عمان كنت ترى البنيان قائمًا على قدم وساق. ولكنّ الكثرة الكاثرة من اللاجئين كانت لا تزال من غير مأوى عندما سافرتُ إلى سورية ولبنان على الأقل.

وفي تلك الأثناء كانت سيارتنا تخوّض في المستنقعات، وكان المطر يُقلّم نوافذها المعتمة. ورانَ الضباب خلفنا على غياضٍ من الأشجار متناثرة يقطر منها الماء وتتدلى أغصانها السوداء مثقلةً بالبراعم. وإلى الأمام كانت الطرق المزفتة تعكس وهج أضواء سيارتنا الأمامية، على الرغم من أن بيننا وبين غروب الشمس ساعة أو يزيد.

وانعطفت الطريق إلى اليسار حول كثيب مرتفع. وإلى اليمين كانت أضواء تنبعث من منخفض قائم تحتنا. وقال العقيد مكي:

«هذه عمان».

كانت أشبه شيء بطاسة، فهي مدينة تحيط بها التلال باستثناء

مسيلٍ ضيق ممتد في ناحيتي الشمال والجنوب يجري فيه نهرٌ ضحلٌ لا يزيدُ عرضه على عشرين قدمًا. وكان يزيد هذه الصورة - مدينة في قعر طاسة - قوةً ذلك المدرج أو الامفيتياتر الروماني الضخم القائم تجاه اوتيل فيلاديلفيا مباشرةً. وإلى يسار فناء الفندق، المطوق بسورٍ والمحاط بعدد كبير من سيارات الجيب الملطخة بالوحل، المدهونة باللون الأبيض، والتابعة للأمم المتحدة، هيكلٌ صغير كان في وقت من الأوقات مكرسًا لعبادة إيزيس، ولكنه ينتظم اليوم عددًا غير قليل من الأسر الفلسطينية اللاجئة التي تقوم بمهام الطبخ والغسل اليومية في كثير من الهدوء، وكأنما كان ذلك جاريًا منذ الأزل، وليس ثمرةً حديثة من ثمرات البراعة اليائسة.

وأوتيل فيلاديلفيا - الذي يملكه آل نزّال - من المباني العصرية القليلة في عمان. لقد شُيد على أسس سليمة ولكنه ليس تحفة فنية. وهو يتألف من بناء رئيسي وجناحين. وكلٌ يرجع إلى عهدٍ ويرقى إلى تاريخ. وإنما يحتوي الجناحان أحدث الأثاث وأدعاه إلى الرفه. وينتظم القسم المركزي من الأوتيل المكتبَ وصالونًا صغيرًا ومشربًا أصغر. وهناك في الدور الأرضي غرفٌ ترقى إلى عهد أبعد، ومطعم الفندق. ويقال إن المطعم كان جيدًا في فترة من الفترات، ولكن تدفق اللاجئين وما عقب ذلك من أزمة في الأغذية حطم معنوية المشرفين على الطبخ، فإذا بالمآكل التي يقدمونها إلى زبائنهم خليقة بأن تُخجل الطاهي البحري! وهكذا كنت تجد الأجنبي في عمان يشرب في بار فيلاديلفيا، ولكنه يتناول طعامه في «نادي عمان» أو من الأغذية المعلّبة. فقد كان الطعام في «نادي عمان» هذا سائغًا مقبولًا، وكان يمتاز بشيء نادر جدًا في البلدان الإسلامية: التنوع. فالواقع أني حين خرجتُ من معسكرات الجنود في الأردن وسورية كنتُ قد أكلت مقادير وافرة من لحم الضأن والحملان، حتى لقد عبقت ثيابي برائحتها وعبقتُ أنا بتلك الرائحة، وحتى لقد أمست قطعان الغنم لا تكاد تشمّ ريحي حتى تجمد في





أرضها وتحدّق إليّ، متسائلة في ذهول: بأيّ حمل أو خروف يذكّرها هذا الرجل الغريب؟!

وهذه المرة، كانت مشكلاتي أكثر إلحاحًا. كانت الغرف كلها مشغولة. واقتضانا البحث عن سرير آوي إليه تلك الليلة جملةً من الأسئلة وجُهت إلى النزلاء الذكور غير المصحوبين بواحدة من النساء، والمحتلين غرفًا ذوات سريرين. وأخيرًا وافق رجلٌ سوري يتاجر بالآلات القاطعة على أن أقاسمه غرفته، وبذلك حُلّت الأزمة. وأقنعت العقيد مكي والنقيب الذي رافقنا في تلك الرحلة بأن يحتسيا فنجانًا من القهوة معي، ثم انطلقا إلى القدس ونابلس عبرَ أخطر طريق من طرق الشرق الأوسط.

وكان أوتيل فيلادلفيا، في تلك الحقبة المرتبكة، يذكر المرء بـ«أوتيل سكريب» بعد تحرير باريس. كان يغص باللاجئين، والمراسلين الأوروبيين، والضباط الأميركيين التابعين للأمم المتحدة، والبحارة القائمين بمهامّ سائقي السيارات وسعاة البريد، وبمحطة لاسلكية كاملة تابعة لهيئة الأمم المتحدة، وكانت تحتل عددًا من الغرف في الدور الثالث (والأعلى). وإلى جانب الضباط الأميركيين كان ثمة عدد من الضباط الفرنسيين والبلجيكيين. وكانت روح الصداقة والتسامح بين هؤلاء الممثلين مفقودةً بقدر ما كانت مفقودة لدى النظارة في المدرّج الروماني القائم عبر الطريق.

وعلى أيّ حال، فقد كانت البهجة تهيمن على المشرب، في أوتيل فيلاديلفيا. وكان ثمة فونوغراف نقّال يهدر بضروب من الأغاني الفرنسية. ومنها تلك الأغنية المحزونة الباكية التي عنوانها «فتاة أحببتها» «Une jeune fille que j'aimais». وكانت تحيط بالمشرب بضع طاولات يحتلها عادة اثنان أو ثلاثة من المندوبين العرب في عمان، واثنان أو ثلاثة من اللاجئين الفلسطينيين الذين لم يفرّوا مع عائلاتهم فقط ولكن مع أموالهم المنقولة أيضًا، وستة أو سبعة من رجال الجيش الأميركيين

من مختلف الرتب، ومراسل أو مراسلان، وضابط من ضباط الجيش الأردني يكون بريطانيًا في الأعم الأغلب، وضابط بلجيكيّ معنيّ بتقويم لغته الإنكليزية وتجويدها من طريق الحديث مع الأميركيين.

وإذ كانت الأحوال الجوية سيئة، في الغالب - فليس ينقطع المطر إلا نادرًا - فقد كان المشرب يغصّ بقصّاده من الساعة السادسة بعد الظهر حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل، عندما يقع رجل البار صريع الإعياء، ويُحمل إلى الفراش. وعلى الجملة فقد كان المشرب موطنًا هادئًا إلى حد معقول. صحيح أن الكولونيل الأميركي كان يرجع أحيانًا إلى رواق الفندق بعد ليلةٍ من السكر المبكّر وليس على جسده ما يزينه غير بنطلون قصير (شورت)، متيحًا بذلك لجماعة من النسوة العربيات مولعة بالحديث الموصول لحظاتٍ قصارًا من الصمت الذاهل. ولكنّ هذا كان لا يقع إلا نادرًا.

وكان الاهتياج يتخذ سبيله أكثر ما يكون إلى صالونات الدور الثاني حيث كان المقامرون من جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط يربحون ويخسرون ثرواتٍ لا بأس بها كلَّ ليلة. وكان القوم يلعبون البوكر، في بعض الأحيان، وعندئذ تحلّ بالجيش الأميركي كارثة. لأن هذه اللعبة تخطّت منذ زمن بعيد التخوم الوطنية وغربلت لاعبيها من مختلف الأمم مقصيةً عن الموائد الخضر كل خوّار ضعيف. وإذا كان الصينيون قد اكتسبوا شهرةً ذائعة في البراعة والدهاء، في المحيط الهادئ، فليس من شك في أن اليونان وغيرهم من أبناء المشرق، قد فازوا من ذلك بقصب السبق، في الشرق الأوسط.

على هذا النحو كانت الحياة تجري في أوتيل فيلاديلفيا. ولم يكن ثمة غير لحظات قليلة توقع الملل في النفس، حتى خلال الأيام الباردة الممطرة. وكنتُ نادرًا ما أفارق الفندق أو أوغل في الابتعاد عنه. وعلى مسافة نصف ميل ليس غير، كان مقرّ القيادة العليا للفرقة العربية أو الجيش الأردني، وكنتُ قد شققتُ طريقي إلى هناك، في صباح اليوم





الذي تلا وصولي، وسط حشود من العرب الملتهبين حماسةً الراغبين في التطوّع، وحشود أخرى كان أفرادها يحاولون إنجاز بعض المصالح الخاصة أو تحقيق بعض الأهداف الشخصية، وحشود غيرها أيضًا مؤلفة من فئة من التجار أقبلت لتقنع «إدارة المشتريات» بأن تشتري بعض بضائعهم التي يحتاج إليها الجيش.

ولم يكن البناء الذي اتخذته القيادة العليا مقرًا لها على شيء من الفخامة. وكان مكتب المايجور جنرال جون باغوت غلوب، المعروف بغلوب باشا، قائمًا في الدور الثاني، خلفَ غرفة انتظار تنتظم عدة مناضد، وموقدًا مستديرًا وُضعت على قمته ركوة كبيرة من القهوة. وكان يحتلّ تلك المناضد ضباط كبار، من مثل الكولونيل ديك بالمر والمايجور هورن، وكلاهما مساعدٌ للباشا.

وكان في جملة الأسباب التي ترغّبني في مقابلة غلوب باشا أن «اتحاد الصحافة في أميركا الشمالية» كان قد كلّفني أن آخذ حديثًا منه ومن الملك عبد الله أيضًا. ومن غير ما إشارة إلى دوافعي الشخصية، طلبت مقابلة غلوب باشا باسم «اتحاد الصحافة» المشار إليه. وهنا أيضًا، كانت سمعة الصحافة الأميركية في الحضيض. فليس عجيبًا أن لا أُستقبل بلهفة مشرقة، وأن لا أُمنح بادئ الأمر غير نظرات من الريبة القاتمة. لقد قيل لي إن عددًا من المراسلين الأميركيين حرّفوا أحاديثهم مع «الباشا» تحريفًا مشوِّهًا إلى حدٍّ بعيد. وليس ثمة ما يحمل على الاعتقاد بأني مختلفٌ عن أسلافي من الزملاء. فما كان مني إلّا أن شرعت في تبيان أهدافي مؤكدًا رغبتي في خدمة العرب، قائلًا إن مقامي في بغداد ومرافقتي للقافلة العسكرية العراقية - وكنتُ أول مراسل أجنبيّ أُجيز له ذلك - خليقان بأن يُثبتا أني لستُ من زمرة أولئك الصحافيين الضالعين مع إسرائيل.

وأخيرًا نهض الكولونيل بالمر، وصبّ لي فنجان قهوة. ثم تركني ليقابل «الباشا». وخلال غيبته تلك دار بيني وبين المايجور هورن

حديث حول معالم الآثار في شرقي الأردن. وكان المايجور هورن هذا هو ضابط المواصلات في الجيش الأردني، ورجلًا ذا أهمية بالغة بالنسبة إليّ. فبالإضافة إلى أنه مصدر السلطة الذي يتعيّن عليّ الرجوع إليه إذا ما احتجت إلى أن أستعير سيارةً من سيارات الجيب، فقد كان يهيمن على سكة حديد الحجاز، الحلقة قبل الأخيرة من حلم «برلين – بغداد» الذي راود مخيلة الحكومة الألمانية الأمبراطورية. وفي عام ١٩١٧ أدت حرب العصابات التي شنها لورانس والكتائب العربية المقاتلة معه إلى إيقاع أكبر الأذى بذلك الخط. وبعد ثماني سنوات تقريبًا، دمر ذئب نجد العجوز – صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية اليوم – هو وقواته، ذلك القسم من السكة الممتد ما بين معان والمدينة تدميرًا جعلها أثرًا بعد عين. وهكذا ينتهي الخط الحديدي الآن، عند «النقب الأشتر» على مبعدة خمسة وثلاثين ميلًا إلى شمالي العقبة.

وبعد عشر دقائق أو نحوها خرج الكولونيل بالمر من «الحرم» الداخلي وأعلن أن الباشا وافق على استقبالي. ثم إنه رافقني إلى مكتب غلوب وقدمني إليه.

وجون باغوت غلوب رجلٌ بدينٌ، قصير، عصبي بعض الشيء، ذو ابتسامة خاطفة، ودعابة ساخرة. وهو ذو كفاءة نادرة، وفهمٍ للعربية لا يقلّ، باعتراف العرب أنفسهم، عن فهم أبناء هذه اللغة لها. وله ابنٌ سمّاه «فارس»، وهو اسمٌ عربي شائع، فهو يُعرف عند العرب (الذين تذوب أسماؤهم في كثير من الأحيان في أسماء أبنائهم أو آبائهم) بأبي فارس. ومن هنا فقد يكني فارس نفسه، ذات يوم، بابن جهان، أو ابن جون.

وعلى الرغم من أن غلوب باشا يبدو وكأنه لا يعي ذلك، فإنه يحمل نَدَبَةً(١) مشوّهة نشأت عن قذيفة انفجرت في وجهه خلال الحرب

(١) الندبة: أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد.





العالمية الأولى فحطمت فكّه(١).

وفيما عدا ذلك، فإنّ له وجهًا أنيسًا ضاربًا إلى الاحمرار، وشاربًا وخطه الشيب ليس في ميسور المرء أن يقول إنه هذّب على نحوٍ خاص أو وفق طريقة بعينها. والحقّ أنه رحب بي في كياسة، ولكن من غير ما حرارة بالغة. وباشرتُ عملي في الحال، فقد لمست في الجو كله شعورًا لو أردتُ ترجمته إلى لغة الناس لما كان غير هذا: «ليس ثمة متسعٌ من الوقت، فعليك بالإيجاز».

سألت الباشا ما إذا كان الأردن سيوقع الهدنة أيضًا مع إسرائيل. (كانت مصر قد ألقت السلاح قبيل مغادرتي بغداد) فأجاب إنه لا يدري، ولكن يظن ذلك محتملًا.

وسألته ما إذا كان السلام سيسود ما بين العرب واليهود بعد أن يقف النشاط الحربي نهائيًا.

ففكّر الباشا في ذلك أكثر من دقيقة، وكان واضحًا من غير ريب أنه يناضل ضدّ المسارعة إلى رفض الفكرة واطّراحها. وأخيرًا قال:

«ذلك يتوقف على اليهود وحدهم. فإذا ما سلكوا مسلكًا حسنًا وجنحوا إلى السكينة، فعندئذ يكون من المحتمل أن يسود السلام. أما إذا ظلوا يسلكون مسلك الفاتحين الأوروبيين المتغطرسين فلن يكون ثمة سلمٌ على الإطلاق».

وكانت قد نُشرت كلمة في إحدى المجلات الأميركية الأسبوعية يُفهم منها أن الإسرائيليين أنزلوا بالقوات الأردنية هزائم متكررة. فسألته عن ذلك. فشاع الدم في وجهه، والتمعت عيناه الزرقاوان ببريقٍ ضبابي، ثم قال في وضوح:

«إن القوات الأردنية لم تُكره على التراجع إنشًا واحدًا أثناء الحرب الحاضرة. فعلى الرغم من أنها لم تزد في يوم من الأيام على

(١) من أجل ذلك كناه العرب في شرقي الأردن بـ«أبي حنيك». [المعرب]

٥،٥٠٠ مقاتل، فقد تعيّن عليها أن تحمي خطًا يزيد طوله على ٥٠٠ كيلومتر، من الحدود السورية إلى خليج العقبة. وليس ثمة قوةٌ إسرائيلية ما، استطاعت أن تُكرهنا على التراجع في أيما ظرف من الظروف».

ثم إن الباشا أشار إلى بعض المغالطات التي تنشرها الصحافة، لا في الولايات المتحدة فحسب، ولكن في بريطانيا أيضًا. كانت كلماته موزونة، ولكنها تقطر غيظًا، وتصيب - وهذا شيء أهم - كبدَ الهدف. لقد عرف، كما عرفتُ أنا، أن هذا الحديث لن يُنشر في الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن «اتحاد الصحافة في أميركا الشمالية» سارع إلى إذاعة تفصيلهِ برقيًا فإنه لم يبلغ غير صفحات قليلة جدًا.

بعد ذلك وجهتُ إلى الباشا هذا السؤال:

«لماذا لا تجيز لي أن أصحب القوات الأردنية كمراقب، وأن ألتقط بعض الصور الفوتوغرافية، وأبذل غاية ما أستطيع من جهد في لفت انتباه الشعب الأميركي إلى بعض الحقائق، لعل في هذا ما يساعده على أن يغيّر موقفه من المسألة؟ فأنا واثق من أن بسط الحقائق للرأي العام الأميركي بسطًا صحيحًا خليق به أن يهزّ مشاعر عددٍ كبير من الأميركيين، فيطالبوا حكومتهم بإنصاف العرب».

وإنه ليبدو لي عجيبًا، الآن، أني ما أزال، وقد بلغت العقد الخامس من العمر، مثاليًا. إنّ أحدًا لم يلفت نظري إلى أن الكذبة العاطفية أشدّ قوةً من الحقيقة المجردة، على الرغم من أني أنتسب إلى بلادٍ حدّدت الأكاذيب العاطفية سياستها طوالَ قرنٍ من الزمان! وأيًا ما كان، فقد رفض الباشا أن يتعهد لي بشيء. لقد قال إنه محتاج إلى أسبوع أو أسبوعين يدرس خلالهما المسألة. وهكذا انصرفت عائدًا إلى الفندق قبل أن أمتطي متن إحدى السيارات العامة إلى قيادة القوات العراقية في الزرقا.

وبلغتُ «المثلث العربي» في الوقت المناسب. كانت أشياء كثيرة تجري هناك. وكانت هزيمة القوات المصرية قد حررت الجيوش



الإسرائيلية في الجنوب، فهي تضغط في قوة وعنف على الحدود السورية والأردنية في موازاة الانحناءة الجنوبية الشرقية من بحيرة طبريا. ومما زاد الموقف حرجًا صعوبة الاتصال بين القوات الأردنية والقوات السورية. ولعل وجود القوات العراقية على تلك الحدود أنقذ الشرق الأوسط من مجاز جديد، كمجاز دانتزيغ، خليقٍ بأن يجعل الحكومات العربية مهتاجة على نحوٍ موصول. وكان واضحًا أن واضعي الخطط العسكرية الإسرائيليين رغبوا في أن يدقوا إسفينًا يعتنق محطة روتنبرغ لتوليد الكهرباء من مساقط المياه، كما يعتنق امتداد نهر الأردن جنوبي بحيرة طبريا. ولو نجحوا في إنفاذ خطتهم إذن لحرموا شرقي الأردن من التيار الكهربائي، ولأمسى نهر الأردن - الحيويّ بالنسبة إلى الحياة الزراعية في شرقي الأردن - تحت رحمة المهندسين الإسرائيليين القادرين على أن يصدّوا النهر عن سبيله ساعة يشاءون.

لقد كان ثمة من غير ريب وقفُ إطلاقٍ للنار يعدل هدنةً كاملة، ولكنّ الإسرائيليين لم يكفّوا يومًا عن خَرق أحكام الهدنة منذ حزيران من السنة الماضية. فلا عجب إذا ما عكروا صفو الهدوء الحاضر أيضًا، ابتغاء الكسب والتوسع. وكان غلوب باشا قد علّق على سلسلة الهجمات والغارات الحالية التي هدفوا من ورائها إلى تحقيق تلك الغاية بسخريته اللاذعة فقال:

«إن عهد الشرف الإسرائيلي ليس له غَوْر!»

# ٠٨ في «المثلث العربي» بفلسطين
# معركة بين العراقيين والإسرائيليين

وفي الزرقا اتضحَ لي، في الحال، أني أخطأت فحسبتُ مثلثًا عسكريًا ما كان في الواقع مثلثًا سياسيًا. صحيحٌ أن سورية وشرقي الأردن (ولقد صارت تعرف حديثًا بالمملكة الأردنية الهاشمية) وإسرائيل التقت عند مثلث تشكل المنطقة المحيطة بملتقى الأردن واليرموك جنوبي بحيرة طبريا ذروته، ولكن لم يكن ثمة غير قليل من النشاط الحربي، ولم أجد أيما قوة عراقية هناك. كان ثمة، بدلًا من ذلك، كما أخبرني قائد الموقع، قوة سورية ينبسط جناحها الأيسر على بلدة سَمَخ. وعبر الأردن، على الضفة الغربية، كانت قوة أردنية صغيرة على اتصال بالجيش السوري. وعلى أيّ حال، فباستثناء حرب العصابات التي شنّها فوزي القاوقجي، الذي عرفناه من قبل في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين وثورة رشيد عالي عام ١٩٤١، لم يشهد ذلك القطاع أحداثًا ذات شأن. وكانت قاعدة فوزي ورجاله، آنذاك، قرب الناصرة، وكانت القوات الإسرائيلية منهمكة في استعادة تنظيمها بعد انتهاء الحرب مع المصريين.

وكان المثلث العربي الحقيقي - كما علمت - هو تلك المنطقة التي تطوقها الجيوش المحيطة بطول كرم وجنين ونابلس. وخط الهدنة الحاضر (١٩٥٠) يعتنق هذه المدن الرئيسية ويمتد في اتجاه الشرق من نقطة تبعد نحوًا من ميل واحد شمالي جنين إلى الحدود الأردنية على نهر الأردن. والحقّ أن الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة تكاد تجري





في محاذاة خط الدفاع العربي، تقريبًا.

وفي ذلك الحين كانت المصاعب قد بلغت ذروتها. فقد تمّ لقوات إسرائيل المسلحة تفوّق غامرٌ في العَدَد والعُدد. وهيمنت تلك القوات، بالطائرات التي حصلت عليها من بلدان أوروبا الغربية والشرقية والولايات المتحدة، على مقاليد الجوّ. وفوق ذلك، فقد كانت تملك مصفحات ثقيلة حديثة، في حين لم تكن القوات الأردنية والقوات السورية تملك غير سيارات مصفحة خفيفة. صحيحٌ أن العراقيين كانت لديهم بعض الدبابات القليلة، ولكنها لم تكن قادرةً على الصمود في وجه دبابات شيرمان و«الدبابات الصليبية» Crusaders الإسرائيلية. وزاد الطين بلةً أن أسلحة السوريين والأردنيين والعراقيين لم تكن موحّدة. فقد كان السوريون يصطنعون سلاحًا فرنسيًا ويطلقون ذخيرة فرنسية، في حين كان الأردنيون والعراقيون يصطنعون أسلحة بريطانية وذخيرةً بريطانية. وكانوا جميعًا مفتقرين إلى الذخائر افتقارًا جديًا. وكان الجيش الأردني يملك، على ما عُرف في ما بعد، اثنتي عشرة رصاصة لكل رجل من رجاله، ليس غير، عند إعلان الهدنة!

وعلى أيّ حال، فقد كانت القوات العربية حول طبريا والمثلث العربي على أتمّ الحذر. فقد كان معروفًا أن الإسرائيليين يعززون قواهم أمام المواقع السورية والأردنية جنوبي بحيرة طبريا، ولكن حرب العصابات المزعجة بقيادة فوزي القاوقجي الذكية البارعة شلّت نشاطهم. والحق أن قوات فوزي نادرًا ما زادت على مئتين وخمسين رجلًا في أيما وقت من الأوقات. وفيما اتخذ من موقع قريب من الناصرة قاعدة لرجاله، راح يجوب أرجاء فلسطين الشمالية كلها، من الحدود اللبنانية إلى ضواحي حيفا. وكان رجاله منظمين تنظيمًا رائعًا ومجهّزين تجهيزًا حسنًا بالأسلحة الأوتوماتيكية ووسائل النقل الآلية التي غنموها من الإسرائيليين. ولم يكن لديهم أيما سلاح جوي - وهو نقص كان خليقًا به أن يهزمهم آخر الأمر - ولكنهم بذلوا في الأسابيع

التي تلت عقد الهدنة بين مصر وإسرائيل[1] جهدًا كبيرًا لصدّ الهجمات الإسرائيلية الكاسحة على «المثلث» وعلى القوات العربية القليلة العاملة قرب سَمَخ.

وكان القاوقجي يتّبع تكتيك حرب العصابات المعروف، والذي يتلخص بكلمتي: «إضرِبْ وانسحِبْ». ولكنّ فوزي – وهو لبناني أشقر فارع الطول – كان فارسًا خليقًا به أن يوقع البهجة في قلب «جب ستيورات»[2] وكان يعرف كل تلٍ وكل وادٍ من تلال فلسطين وأوديتها. فكم من مرةٍ استدار متعقبًا الجنود الإسرائيليين وهاجمهم من خِلاف، حيث لم يكونوا يتوقعونه على الإطلاق. وكانت هذه المناورة تنتهي دائمًا بضربٍ من المطاردة يثير روح الدعابة عند العربي ويُبهجها. وفي بعض الروايات الموثوقة أن فوزي وكبار أعوانه قضوا مرةً ساعاتٍ بكاملها فوق قمة كثيب مجاور وهم يهدرون بالضحك فيما كانوا يراقبون تشتت القوات الإسرائيلية وهزيمتها المنكرة.

وفي أوائل شباط، وكانت محادثات الهدنة قد استُهلت، بذل الجيش الإسرائيلي جهدًا قويًا لتحسين مركزه من طريق الهجوم على رأس «المثلث العربي» في جنين وكانت الهدنة قائمة، قانونيًا، منذ السابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٨، **ولكن قبل ذلك التاريخ وبعده على السواء كان الصهيونيون يلقون تأييدًا وتشجيعًا من جانب مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، الذي كان يرئس، آنذاك، مجلس الأمن أيضًا. ليس هذا فحسب، بل إن السانتور أوستن Austin حال بين بعض الدول الأخرى وبين إدانة إسرائيل لخرقها المتكرر اتفاقات ما قبل الهدنة الموقعة في رودس. وحين استغل الإسرائيليون**

(١) وقعت الهدنة في ٢٤ شباط ١٩٤٩.

(٢) هو جيمس إيويل براون ستيورات (١٨٣٣–١٨٦٤) أحد القادة العسكريين الاتحاديين في الحرب الأهلية الأميركية. [المعرب]



**هدنة تشرين الأول فاحتلوا النقب خارقين بذلك أحكام مشروع برنادوت، لم يتورع مندوب الولايات المتحدة في هيئة الأمم عن تأييد إسرائيل، وصرح بقوله: «إن حكومته تعارض في اقتطاع أيما جزء من رقعة الدولة الإسرائيلية ما لم توافق إسرائيل هي نفسها على ذلك»!**

**وإذ وجد الإسرائيليون مثل هذا «الشيك الأبيض» في يدهم، راحوا يتخطون كل الحواجز الأخلاقية والقانونية الدولية. وفي استهتار كامل بحقوق الآخرين طفقوا يغيرون على الأراضي العربية هنا وهناك ويضمونها إلى دولتهم. ولم يكن ليردعهم عن ذلك غير ما كانوا يلقونه أحيانًا من مقاومة عربية فعالة. حتى إذا اصطدموا بشيء من هذه المقاومة رفعوا عقيرتهم بالشكوى من «العدوان» إلى الولايات المتحدة وهيئة الأمم المتحدة.** ووجد كثير من المراقبين الدوليين في لجنة الهدنة المختلطة أن من المتعذر عليهم العمل في هذا الجوّ، فاستقالوا من وظائفهم وعادوا إلى بلادهم. لقد حال الصهيونيون بينهم وبين أداء واجبهم في ميدان القتال، وسرقوهم كلما حاولوا أن يصرفوا شيكات رواتبهم في الأراضي الصهيونية. والحقّ أن الأميركيين الذين وفدوا على إسرائيل مُشبعين بالعطف على الصهيونيين والثقة بعدالة قضيتهم، رجعوا إلى الولايات المتحدة بعد بضعة أشهر وقد عصف في جوانبهم بغض مرير لليهود جميعًا، باستثناء الذين ثبت لدى أولئك الأميركيين، من طريق المعرفة الشخصية، أنهم من ذوي الاعتدال والإنصاف. ولقد اجتمعت إلى أحد اليهود الأميركيين – وهو رجلٌ بارز في مدينته – إثر عودته من إسرائيل، فقال لي متحسرًا متأوهًا:

«ولكنّ تلك الحثالة ليست حتى من البشر!»

وكان الهجوم على جنين ذا خطر خاص لأنه كان آخر تهديد حقيقي للمثلث العربي. ولقد وقع، شأنَ معظمِ الهجمات الصهيونية، تحت جنح الظلام. ولكن الليل، في جنين، خانَ اليهود وغدر بهم.

وكانت القوات العراقية المرابطة حول كثبان جنين منتشرةً من بُرجين إلى عرّانه، على مسافة تبلغ نحوًا من ميلين. وإلى الشرق من طريق جنين - حيفا كانت تقوم مستعمرتان صهيونيتان صغيرتان. وكانت هاتان المستعمرتان هما «يامون» و«كفر دان». وإذ كانتا، ظاهريًا، مستعمرتين زراعيتين، فقد استمدتا حاجتهما من الطاقة الكهربائية من محطة روتنبورغ القائمة عبر الأردن. (مما تحسن الإشارة إليه هنا أنه في خلال الحرب الفلسطينية سُمح للقرى والمدن الإسرائيلية بأن تستمدّ حاجتها من الطاقة الكهربائية من الأراضي الأردنية) وكانت شوارعهما ومنازلهما تتلألأ عادةً بالأنوار الساطعة، بعد غروب الشمس.

وفي تلك الليلة بالذات، ليلة ١٤ شباط، في ما أذكر، لاحظ المراقبون العرب أن أضواء الشوارع في تينك المستعمرتين الصهيونيتين كانت قائمة، وأن المنازل كانت مهجورةً في ما يبدو. وعند الساعة الثامنة حُملت هذه الأنباء إلى مقر القيادة العليا للقوات العراقية، واستعدت المواقع العراقية الأمامية لكل طارئ. وكانت تلك المواقع كناية عن خنادق أو «أجحرة ثعالب» Foxholes حُفرت عميقًا في سفوح التلال بحيث تهيمن على المداخل المؤدية إلى البلدة وإلى مقرّ القيادة. وإلى جانب البنادق ذات الحراب كان العراقيون المحتمون في تلك الخنادق يملكون مدافع خفيفة من طراز «لويس» وبضعة مدافع ثقيلة من طراز «فيكرز». وكانت على قمة الكثيب شبه قلعةٍ محوطةٍ بأكياس الرمل وبعدد من الخنادق وأجهزة الأضواء الكشافة. وكان نحوٌ من خمسين جنديًا يرابطون هناك. أما المواقع الأمامية المتناثرة فكان كل منها يضم جنديين أو ثلاثة جنود في العادة.

وعند الساعة العاشرة والنصف خيم الصمت على المكان، وبلغ التوتر ذروةً مقلقة. كانت القرى المتلألئة عادةً بالنور مظلمةً كلها في ناحية الغرب، وكان ضبابٌ دانٍ يزحف من جانب البحر الأبيض المتوسط، فيزيد السكينة ثقلًا ويشيع الوحشة في الجو كله. وفي محاذاة





الكثيب تحرّك الجنود العراقيون، محترسين حذرين، في خنادقهم، محملقين بأعينهم، محاولين أن يكتشفوا حركةً ما وسط الظلام. ولم يكن القمر متوقّعًا قبل ساعات الصباح الأولى، وكان الضباب يغشى النجوم. وغدت التربة السمراء رطبةً، نديةً، باردةً جدًا، فهي تلصق بأيديهم، فيُضطرون إلى إزالتها عنها قبل أن يمسكوا ببنادقهم.

وينبغي أن تكون الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ببضع ثوانٍ عندما أبصر أول جندي عراقي الجماعة الزاحفة أمامه. وفي الحال أقحم صفارته في فمه وأطلق صفرةً مدوية، وأفرغ من مدفع «لويس» الذي يحمله فيضًا من اللهب والرصاص. وفي ثانيتين اثنتين اشتعلت المنطقة المحيطة بـ«كفر دان» بضوء ساطع أزرق مبيضّ. وأخيرًا أوقفت ثلاث شاحنات مدافع مضادة للطائرات ذات أضواء كشافة عند نهاية الشارع، حيث يبدأ الكثيب، وكشفت أضواؤها القلعة ومواقع المدافع العراقية. وكذلك كشفت الإسرائيليين المهاجمين الذين جثوا، الآن، على ركبهم، وأمطروا الأرض والقلعة بوابل من نيران مسدساتهم الأوتوماتيكية. وكانت وجوههم وأيديهم قد سُوّدت على أحدث الأساليب التي تصطنعها فرق الكوماندوس البريطانية. وكان من الجائز أن لا يُروا على الإطلاق لولا أن كشفتهم الأضواء المضادة للطائرات، وكانت تعمل من ورائهم.

ولكن الأضواء الكاشفة العراقية ما لبثت أن نشطت إلى العمل، فانطلق الإسرائيليون، محدودبين مطأطئي الرؤوس، وقد ظهرت معالم أجسادهم واضحةً وكأنما يجرون على مسرح من المسارح. وحتى حين تحركوا عبر أعشاش المدافع الأوتوماتيكية أو صعّدوا في الكثيب بدت معالمهم جليةً للعيان لأن بنادق العراقيين وحرابهم كانت تتعقبهم. وتقول بعض التقارير إن عدد الجنود الإسرائيليين الذين اشتركوا في الهجوم يناهز الألف.

والواقع أن بعض هؤلاء تمكنوا من الوصول إلى القلعة فعلًا.

كانوا مقاتلين مختارين، وذوي شجاعة، ولو لم تكن تحتل قمة الكثيب نفسها كتيبة عراقية لم تفد على ميدان القتال إلا منذ فترة يسيرة، إذن لكان جائزًا أن يوفق أولئك المقاتلون الأشداء إلى انتزاع الكثيب والموقع من أيدي المدافعين عنهما. لقد اقتحموا المراكز العراقية الأمامية وسحقوها في الدقائق القليلة الأولى، على الرغم من أن ضحاياهم كانوا عشرين مقابل جندي عراقي واحد، وانتهوا إلى القلعة وخنادقها في مدى خمس عشرة دقيقة، لأن معركة حامية كانت تدور عندما انقضّت طلائع الكتيبة العراقية الجديدة بحرابها على الإسرائيليين في تفانٍ مبتهج طروب. لقد اكتُشف الهجوم الإسرائيلي بعد بضع ثوانٍ من تمام الحادية عشرة. فلم تبلغ الساعة الحادية عشرة والنصف حتى كانت فلول الإسرائيليين الباقين على قيد الحياة قد ولت الأدبار هابطة الكثيب، مجتازةً خنادق القوات العراقية، معرضةً نفسها لوابلٍ من نيران مدافعها، لتصل آخر الأمر إلى الشاحنات التي كانت تنتظرها بين منازل المستعمرة. وكانت أضواؤهم الكشّافة قد أغمضت عيونها حالما شرعوا في التراجع، ولكن الأضواء العراقية الكشافة ظلت تسطع وتتوهج، فهي تمكّن القوات العربية من إصلاء اليهود المنهزمين نارًا حامية على طول خط ارتدادهم إلى الطريق التي تظللها الأشجار. والواقع أن الإسرائيليين تركوا وراءهم ثلاثمئة وعشرين رجلًا بعضهم قتلى وبعضهم جرحى، وأربع شاحنات (اثنتان منهما تحتويان على ذخائر حربية) ووحدة من وحدات الأضواء الكشافة، وشاحنة مسلحة بمدافع «مورتر» لم تُستعمل قط في ذلك اللقاء القصير.

وبعد شهر تقريبًا قام الصهيونيون بمحاولة جديدة في العقبة من أجل الحصول على كسب جديد يضاف إلى مكاسبهم الإقليمية السابقة، على الرغم من أن المرء قد يظن أن حافزهم إلى ذلك لم يكن غير الجشع المحض. وتفصيل ذلك أن إسرائيل تملك مرفأين ممتازين أنشأهما البريطانيون في حيفا وتل أبيب. ولم تكن المملكة الأردنية





تملك غير ميناء العقبة العتيق القائم عند رأس خليج العقبة. ولولاه لكانت تلك المملكة مطوقة بالبر من جميع أطرافها. وعلى الرغم من ذلك فقد حاولت إسرائيل أن تستولي عليه. وإنما وقع ذلك في الثامن من آذار، بعد نحوٍ من أسبوعين انقضيا على توقيع الهدنة مع مصر.

وتقوم العقبة عند تلك النقطة التي ينخفض فيها ذلك الفلق الجيولوجي المسمى «وادي عربة» إلى ما دون مياه خليج العقبة، ويستمرّ تحت البحر الأحمر حتى ينبثق من جديد في الأراضي المصرية. بيد أنها ليست الموطن الأوحد الذي ينخفض فيه وادي عربة إلى ما دون سطح البحر. ففي أريحا، حيث الطريق بين القدس وعمان تجوز جسر أللنبي فوق نهر الأردن، يصل الوادي إلى حضيضه المنخفض ألفًا ومئتي قدم تقريبًا تحت سطح البحر. أما في بحر الجليل (بحيرة طبريا) فيبلغ انخفاضه نحوًا من سبعمئة قدم تحت سطح البحر. وإنما ينطلق نهر الأردن (أو «النهر الذي يجري نزولًا») من الجداول المنبثقة من جبل حرمون ووادي البقاع، فتجتمع مياهه في بحيرة الحولة، ويتمعّج بضعة أميال ليندفع بعد ذلك إلى سلسلة من المضايق ودوّامات الأنهر تُسلمه متعثرًا إلى تلك «الأدغال» القائمة على ضفافه الخصيبة، ومن ثم إلى البحر الميت ذي الثروة المعدنية.

ويتخذ نهر الأردن سبيله في محاذاة وادي عربة. وهو نهرٌ تاريخي، لأن وادي عربة موطنٌ تاريخيّ. فههنا وُجدت بقايا الإنسان القديم الذي يرقى إلى العصر الحجري، قرب الجليل، كما عُثر على عظام بعض الفيلة والأسود. وعلى طول جنبات المضايق التي توشك أن تكون عمودية، يبدو التنضّد الطبقي Stratification الذي ينهض دليلًا على أن حينًا من الدهر قد تقضّى كان وادي عربة خلاله تحت سطح البحر، ويكشف عن العصور المتعاقبة التي انبثق أثناءها من تحت الماء ليغدو برًا من جديد.

وفي العقبة، يندفع وادي عربة إلى الساحل الرملي الضيق قبل أن

يغوص في الخليج. وهنا تؤلف جبال النقب الكوارتزية[1] المخططة مثل سكر القند (أو سكر النبات) أساسًا للمضايق الغرانيتية التي تجعل التسلق عسيرًا، حتى على المعزاة. والوادي العميق المتعرج ذو الجنبات الشديدة الانحدار يكاد يكون دائمًا في الظل، وهو حافلٌ بالصخور المنفصلة البالغة الضخامة. وإلى نقطة تبعد مئة ميل أو يزيد إلى الشمال، كان نهر الأردن قد خسرَ نفسه في البحر الميت، فليس ينساب الآن في المجرى الضحل غير ما اجتمع من مياه الأمطار. إلا أن الجبال تشهد في بعض الأحيان فيضانًا فجائيًا مدمرًا، يُنزل الصخور المنفصلة الضخمة من قنن التلال: حجارة هائلة في حجم المنازل تتعثر وتتدحرج في صدر الفيضان الأسمر المسوّر، الحافل بالأنقاض والنفايات، والهادر تهدارًا عنيفًا فيما هو يهبط الوادي مندفعًا غامرًا كل ما يعترض سبيله حتى يبلغ الخليج ويرتمي في أحضان النسيان. وكم من رجلٍ قضى نحبه في وادي عربة هذا. فمرّتين اثنتين حاولت الحكومةُ البريطانية أن تنشئ طرقًا مرصوفة بالحصباء في قرارة الوادي. ولا تزال بعض الفلذ المعدنية الصغيرة الممزقة تبدو للعيان، ههنا وههناك، على صفحة الرمل. واليوم تثب سيارات الجيب التابعة للجيش الأردني فوق جوف الوادي طوال عشرين ميلًا من الخيفة والحذر - في موسم الأمطار - قبل أن تصعّد في طريق شديدة الانحدار تؤدي آخر الأمر إلى منبسط النقب المرتفع، وإلى الطريق المؤدية إلى النقب الأشتر ومعان.

وإلى الغرب من وادي عربة تقوم إسرائيل، وجبال النقب الغربي. وليس ههنا شيء. لا ماء ولا تربة. ولكن ثمة مأوى صياد عربي، ونبعٌ صغير لا تصلح مياهه للشرب إلا حين يبلغ موسم الأمطار ذروته. وعبر رأس الخليج تقع الأراضي المصرية وقرية «أمّ رَشْرَش» بوصفها النهاية

(١) الكوارتز Quartz ضرب من الصوان. [المعرب]





الشمالية لطريق تؤدي عبر جبال سيناء إلى البحر الأبيض المتوسط. ولو قد أراد أحدٌ أن يسلك الطريق الأقصر من العقبة إلى البحر الأبيض المتوسط إذن لسلك هذه الطريق، لأنها تتصل عند الجانب الآخر من الجبال بالطريق الممتدة ما بين العريش وغزة.

وهي شأنَ الطرق جميعًا مجازٌ ذو اتجاهين. وإلى شمالي خط الحدود كما رسمته هدنة ٢٤ شباط ١٩٤٩ تقوم قرية العوجة الفلسطينية السابقة. وهي تقع على الطريق المعبدة التي تمتد إلى الموقع الجنوبي الإسرائيلي الحصين في بئر السبع. والعوجة مركز لمنطقة مجردة من السلاح وفقًا لأحكام اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية التي نصّت على أحكام خاصة بتلك المنطقة[1].

وحوالى مطلع آذار، فيما كان مندوبو إسرائيل والأردن قد توصلوا إلى اتفاق خاص بالهدنة وقعهُ كلا الفريقين في ٣ نيسان، دخلت العوجة من بير السبع قوات إسرائيلية مزودة بالدبابات، والمدفعية السيارة، والسيارات المصفحة، وناقلات الجنود. واخترقت القوات القرية ثم انعطفت نحو الطريق المؤدية إلى غزة، وبعد ميل أو نحوه عادت فانعطفت نحو طريق قديمة تقود إلى بيرَين. وكانت هذه الطريق تجري في موازاة سكة حديدية مهجورة سايرت القافلة العسكرية الإسرائيليّة حتى جبل السّبحة، قبل أن تغيب عن الأنظار. واجتازت القافلة الأراضي المصرية مسافة ميلٍ واحد من بيرين. وكان ذلك خرقًا خطيرًا لأحكام الهدنة. صحيح أن الصهيونيين لم ينقطعوا يومًا عن خرق تلك

(١) جاء في الفقرة الأولى من المادة الثامنة ما نصه:
«إن المنطقة التي تنتظم قرية العوجة وما جاورها... يجب أن تجرد من السلاح. ويتعين على القوات المصرية والإسرائيلية جميعًا أن لا تقربها بحال من الأحوال. وأن رئيس «لجنة الهدنة المختلطة»... سوف يأخذ على عاتقه مهمة التأكد من أن الفريقين يلتزمان أحكام هذه المادة». سلسلة معاهدات الأمم المتحدة، المجلد ٤٢، سنة ١٩٤٩.

الأحكام منذ أن دخلوا المنطقة المجاورة للعوجة. ولكنهم هذه المرة بالغوا في العدوان، فغزوا الأراضي المصرية نفسها.

وفي ليل ٦-٧ آذار سلكوا الطريق المتجهة شرقًا نحو خليج العقبة معتدين بذلك على حرمة الحدود المصرية. وفي صباح اليوم السابع من آذار دخلوا قرية أُم رشرش وطردوا سكانها منها مضرمين النار في منازلهم. وبعد انقضاء أسبوع على هذا العدوان، أخبرني مهندس اسكتلندي من مهندسي التعدين كان يقطن، هو وابنه، قرية أمّ رشرش، قائلًا:

«إن أولئك المجرمين ما كانوا يمزحون. لقد أخرجوني من بيتي، ونهبوه أمام عينيّ. أنا لا أدري أين ولدي، ولكني أحسب أنه سليمٌ في التلال».

وفي اليوم الثامن من آذار شعرت حامية العقبة الهزيلة بالعدوان الإسرائيليّ من طريق بعض العرب الذين حملوا إليها نبأه ووصفوا لرجالها ضخامة القوة اليهودية المغيرة والأسلحة التي زُوِّدت بها.

والعقبة ليست بلدةً ذات شأن، سواء من حيث الاتساع أو من حيث الثروة. لقد صهرت النحاسَ، في تاريخها القديم، لفراعنة مصر. ثم إن الملك سليمان أطلق عليها اسم إيلات[1] عندما كانت السفن التجارية القادمة من المحيط الهندي وأرض مصر تحمل البضاعة عبر البحر الأحمر أو القنوات التي تصل النيل بالبحر الأحمر، تلك القنوات التي وُجدت على نحو يكاد يكون موصولًا منذ الألف الثاني قبل الميلاد، والتي أفاد المهندس الفرنسي دي ليسبس من آخر قناة منها، في حفر قناة السويس الحاضرة.

وبعد مجيء الرومان صارت العقبة تعرف بـ«إيلاتا»، واكتسبت جدارًا بحريًا حجريًا. حتى إذا سقطت رومة عادت فعرفت بالعقبة كرةً

(١) أو أيلة كما تدعوها المصادر العربية القديمة. [المعرب]



أخرى، وسكنها جماعة من التجار العرب، ومن بعدهم الأتراك.

وبنى الأتراك قلعة حصينة في العقبة، ولكنها لم تصمد في وجه السفن الحربية البريطانية وبنادق العرب المقاتلين مع الكولونيل لورانس. أما اليوم فتكاد القلعة تكون خربة كالجدار البحري، ولكنهما كليهما دليلٌ شاهد على ماضيها المجيد. وفي ما عدا ذلك، تقوم في العقبة اليوم محطة تضاهيها في الصِغر لتوليد الكهرباء، وهي تصطنع أيما ضرب من ضروب الوقود تقريبًا، ابتداءً من الحطب العائم على وجه الماء إلى الكيروسين. وثمة كذلك فندق صغير يديره رجلٌ عربي كان في وقتٍ ما مهربًا للمسكرات في نيو جيرزي.

أما البلدة نفسها فتتألف من مئة منزل تقريبًا قائمة في محاذاة زاوية الكثبان التي يخترقها وادي عربة عند مصبه. وعلى منتصف الطريق الهابطة من سفح الكثيب، ووسط غيضة من النخيل، ينهض مسجد صغير ذو مئذنةٍ أعلاها مخروطيّ الشكل، وسطحها من حديد مُغَلْوَن[1] (مزيبق) وسكان البلد صيادو سمك وتجار صغار.

وعلى مسافة خمسين ياردة، تقريبًا، من الجدار البحري الروماني، ورصيفه الحجري الأقل فعالية، على الرغم من أنه أحدث من الجدار عهدًا، يقوم بناء مربعٌ مطلي بالكلس ينتظم مكتب محافظ البلدة، ومدير شرطتها، وثكنة تضمّ أربعة رجال من حرس الصحراء التابع للجيش الأردني، وبعض الغرف للضيوف غير المنتظَرين. يضاف إلى ذلك مطبخ يشرف عليه عربي فارع الطول مخيَّب الآمال. وأيًا ما كان، فقد كان هذا البناء هو حصن العقبة وخط دفاعها الأوحد.

ولكن كان ثمة تليفون أيضًا. فلم تكد الحامية الرباعية أو الخماسية (إذا أضفنا إلى الجنود الأربعة قائدهم، وكان برتبة رقيب)

(١) galvanized نسبة إلى لويجي غالفاني (١٧٣٧-١٧٩٨) الفيزيائي الإيطالي الذي اكتشف بتجاربه أن الكهرباء قد تنشأ عن العمل الكيميائي. [المعرب]

تتثبت من صحة الأنباء التي نُقلت إليها عن الغزو الإسرائيلي حتى نصب أفرادها مدافعهم من طراز «لويس» على سطح القلعة، مولين ظهورهم حدود المملكة العربية السعودية التي تبعد عن مقرهم بضع ياردات ليس غير، واستعدوا للدفاع عن القلعة في وجه الغزاة بالغًا ما بلغ عددهم. فيما حاول عامل التليفون أن يتصل بقيادة القوات الأردنية العليا في عمان.

وعند الساعة التاسعة صباحًا تقدمت القوات الإسرائيلية عبر طريق أم رشرش واقتربت من الحدود عند وادي عربة. وفي ذلك الحين كان جناحها الأيمن على مبعدة ثلاثين ياردة، تقريبًا، من مياه الخليج، في حين كان جناحها الأيسر يستدير حول الطريق الضيقة القذرة التي تمتد من شارع العقبة الرئيسي إلى رأس الخليج عند مأوى صياد السمك. وبين وادي عربة والبلدة وقلعتها تقوم أرض منبسطة مرتفعة بعض الشيء تتحدر نحو البحر. وفي الوقت نفسه، يمتدّ هذا المرتفع الرملي عبر الطريق المؤدية إلى النقب، ويغدو محطًا صالحًا للقاذفات الخفيفة. ولقد خلف البريطانيون هناك، عند نهاية الحرب العالمية الثانية، مطارًا مخربًا بعض الشيء ولكن في الإمكان استخدامه عند الاقتضاء، كما خلفوا بناءً حكوميًا.

وفي تلك الأثناء كان عامل التلفون في العقبة قد وُفق إلى الاتصال بالموقع العسكري في معان، فسارع هذا إلى إبلاغ القيادة العليا في عمان النبأ. ونشط غلوب باشا العمل. وجُمع حرس الصحراء من جميع المواقع المجاورة للعقبة وأُمروا بالالتحاق بالحامية المدافعة عن القلعة. ثم إن غلوب أشعر القيادة البريطانية في مصر بالحالة. وكانت معاهدة ١٩٤٥ تفرض على كل من بريطانيا والمملكة الأردنية أن تهرع إلى نجدة الأخرى حين يتهددها عدوٌ بخطر. ولقد كانت هنا حالة من حالات الخطر. ومع ذلك فقد بدا وكأن حليفة الأردن سوف تصل لنجدتها بعد فوات الأوان.





وفي القلعة، كان قد انضمّ إلى حاميتها المؤلفة من خمسة رجال مايجور بريطاني ذو قوة بالغة وبأس شديد، هو جيوفري كروكر Crocker وكان قد لمعَ نجمهُ في حملة بورما عندما قضى نحوًا من ستة أشهر خلف الخطوط اليابانية وأقضّ مضاجع الجند الياباني بغاراته المحكمة، فنال من أجل ذلك وسام .D.S.O البريطاني[1].

وكان رجلًا نحيلًا فارع الطول ذا شاربٍ أسود غير مهذّب. وكان يتنشق السعوط على نحو موصول حتى لتغدو مناديله كاكيّة اللون. وكان قد قام بمأثرة حديثة العهد قبيل انسحاب المصريين من الفالوجة، وبعد توقيع الهدنة بيومين. وتفصيل ذلك أن هذا الضابط البريطاني اصطحب جنديًا عربيًا وتسلل عبرَ إسرائيل طوال يومين اثنين قبل أن يصل إلى المكان الذي رُكمت فيه الذخائر الحربية المصرية التي استولى عليها الصهيونيون. وكانت هذه الذخائر محوطة بالأسلاك الشائكة. حتى إذا اقترب هو والجندي العربي منها نسفاها عن بكرة أبيها، ثم انقلبا وسط دويّ الانفجارات إلى الحدود الأردنية. وتميز الإسرائيليون من الغيظ بعد أن حُرموا أبدَ الدهر استعمال الذخائر الحربية التي استولوا عليها في الفالوجة. ولكنّ صاحبنا لم ينل هذه المرة وسام .D.S.O!

ولنعد الآن إلى الهجوم الإسرائيلي على العقبة. إن تحسنًا ما لم يطرأ على الوضع عندما حان وقت الظهيرة. ولم يقم الإسرائيليون بأيما حركة صاعقة. لقد بدوا، على عكس ذلك، وكأنهم يتقدمون وئيدًا وئيدًا، ناشرين جناحيهم، حاشدين دباباتهم وسياراتهم المصفحة في الوسط. وعلى سطح القلعة كانت الحامية العربية قد نصبت مدفعي لويس (طراز ١٩١٥) ومدفعي مورتر (طراز ١٩١٥ أيضًا).

ورُسم خطّ نظري على طول الرمال، يبعد ثلاثمئة متر عن القلعة. حتى إذا اجتاز الإسرائيليون ذلك الخط تعرضوا لكل ما كان في طاقة

(١) Distinguished Service Order.

العرب أن يقذفوهم به. ولم يكن ذلك شيئًا كثيرًا.

وتابع الإسرائيليون زحفهم، تتقدمهم الدبابات وهي تهدر وتضجّ فوق الرمل، وتخيّم من خلفهم سحابة من غبار كانت ترتفع في بطء وتسدل حجابًا من الظلام على كل ما وراءها. وعلى سطح القلعة، تحفز الجنود العرب للعمل وقد عصفت في نفوسهم نشوة التوقّع. وفحصوا مدافعهم ليتأكدوا من استعدادها الكامل للعمل، كما فحصوا قذائفهم العتيقة. وعند الطرف الغربي من السطح راح قائد الحامية يراقب الدبابات الزاحفة من خلال منظاره الحربي.

وصاح بعضهم:

«وحقّ الله، لقد أقبلوا!»

وقال آخر:

«سوف نقضي عليهم بإذن الله!»

وأخيرًا وثب قائد الحامية صائحًا:

«أمطروهم بناركم، أيها الشباب!»

وفي الحال قصفت مدافع الحامية العربية، ورفع قائدها مدفع «تومي» وأمطر المهاجمين بناره الحامية.

وكانت القوات الإسرائيلية محجوبة بالغبار وبالرمل الذي رفسته الدبابات والسيارات المصفحة. أما الآن فقد غدت الدبابات والسيارات نفسها محجوبة عن النظر بعد أن أثارت قذائف المدافع ينابيع من الرمل في الهواء. وحتى قذائف الـ«مورتر»، انفجرت برغم عتقها. وطوال عدة دقائق، تواصل المطر الرصاصيّ، ولكنه كان آخذًا في الضعف شيئًا بعد شيء بسببٍ من نفاد الذخيرة. وكان واضحًا أن الهجوم الإسرائيلي قد توقف. وفي تلك اللحظة من الصمت النسبيّ، دوّى في الجو هدير طائرات، واستدار أفراد الحامية العربية على ظهورهم وحدّقوا إلى السماء، المتوهجة بأشعة الشمس، محاولين أن يحددوا مواقع الطائرات، وكانوا على مثل اليقين من أنها إسرائيلية.





ولكن الطائرات التسع لم تكن إسرائيلية. كانت طائراتٍ بريطانية وصلت في الوقت المناسب. إذ ما كادت تقلع من فوق برزخ سيناء حتى تقدّمت إحدى الدبابات الإسرائيلية وأطلقت من مدفعها قذيفة واحدة على القلعة. وأصابت القذيفة القلعة عند نقطة تبعد بضعة أقدام فحسب عن وسطها، واخترقت أربعة من جدرانها، مندفعةً نحو الصحراء الواقعة ضمن حدود المملكة العربية السعودية، حيث انفجرت آخر الأمر. لقد كانت هي القذيفة المدفعية الوحيدة التي أُطلقت في تلك المعركة. وعندئذ انكفأت القوات الإسرائيلية، مخوِّضةً في الرمل، إلى وادي عربة وما وراءه، تراقبها الطائرات البريطانية من الجو.

وبعد ساعة انقضت على انسحاب الصهيونيين إلى الأراضي الداخلة في دولتهم، وصلت أولى النجدات التي بعث بها الجيش الأردني إلى القلعة. ولم يكد الليل يهبط حتى كانت القلعة تنتظم ما يزيد على مئتي مقاتل ومدفعية ميدان خفيفة. وكانت طائرات سبيتفاير البريطانية قد رابطت في المطار العتيق، واحتل البريطانيون البناء الحكومي الذي أشرنا إليه آنفًا.

وفي صباح اليوم التالي أقحمت ناقلتان بريطانيتان من ناقلات الأعتدة والجند أنفيهما في الساحل الرملي، وكان على ظهرهما دبابات وكتيبة من كتائب لنكولنشاير. وغص المطار الصغير بمجموعة أخرى من الطائرات، كانت هذه المرة قاذفات خفيفة. وكانت الدبابات – وعددها ثمانٍ – من النوع المعروف بالـ Crusaders ومن الطراز الأحدث. فلم تكد تهبط المكان حتى احتفرت لنفسها مواقع في الرمل فليس يبدو منها غير أبراجها، منشئة بذلك «خط ماجينو» متحركًا قبالة البلدة. وفي محاذاة الدبابات شق أفراد كتيبة لنكولنشاير عددًا من الخنادق وأقاموا ثكنات ومطبخًا وبيوت خلاء. وفي البلدة نفسها كان مخزن من مخازن «نافي» قد بدأ أعماله، فهو يوزع شفرات الحلاقة، والطعام المحفوظ في العلب، والويسكي الإسكتلندية والكندية، وورق

الكتابة، وغيرها على من يؤهلهم وضعهم لذلك. وأذكر أن ثمن الزجاجة الواحدة التي تتسع لربع غالون كامل من الويسكي الكندية كان نحوًا من دولار وخمسة وسبعين سنتًا.

وفي ذلك الأصيل اقتربت من رأس الخليج سفينتان حربيتان بريطانيتان، أو مدمرتان ثقيلتان، وألقتا مراسيهما فيه. وفي الحال أُديرت مدافعهما وسُلّطت على أمّ رشرش والطريق إلى وادي عربة. وكان نفر من جنود الدبابات البريطانيين قد خدم في فلسطين خلال فترة الاختطاف وإلقاء القنابل، فهم غير نزّاعين لأن يقفوا موقف العطف على الصهيونيين. لقد تشوقوا إلى أن يروهم يهجمون لأنهم كانوا على أتمّ الاستعداد للردّ عليهم وكأنما يتوقعون «رومل» نفسه. ولكن آمالهم مُنيت بالخيبة. لأن الصهيونيين ما لبثوا أن ولوا الأدبار خلسةً، بعد بضعة أيام، تحت جنح الظلام. وبعد أسبوع انقلبوا إلى مراكزهم بخفي حنين.

وفيما ظلّ آخر الصهيونيين هناك كقوة رمزية، وفدَ اثنان من مراسلي الصحف إلى مسرح الحوادث. ذلك بأن الراديو الإسرائيلي أعلن - فيما لم تأتِ أيما أنباء عن الحوادث من شرقي الأردن - أن الصهاينة أحرزوا نصرًا عظيمًا في العقبة واحتلوا الميناء. فما كان من لويس هيرن Herne مندوب «التايمس» اللندنية، وكينيث بيلبي Bilby مندوب الـ«هيرالد تريبيون» النيويوركية إلا أن فارقا الحياة الناعمة الباهظة النفقات في إسرائيل ليوافيا صحيفتيهما بأنباء المعركة. وهكذا هبطا عمّان وحصلا من غلوب باشا على جوازين أتاحا لهما السفر بالترولي من عمان إلى معان. ومن ثم إلى النقب الأشتر والعقبة بسيارة جيبب في نحو عشر ساعات. وفي العقبة لم يجدا مكانًا يبيتان فيه غير ثكنة القلعة، لأن الجنود البريطانيين كانوا قد احتلوا الفندق. حتى إذا ألقيا نظرة على المكان الذي جرت فيه الحوادث حاولا أن يُبرقا برواياتهما من عمان إلى لندن ونيويورك. ولكنهما لم يوفقا إلى ذلك.



لأن المراقبة الأردنية كانت لا تجيز أن تصدر عن عمان أيما رسالة برقية إلا بعد أن تقترن بتوقيع الملك عبد الله نفسه - أو هذا ما كان يبدو على الأقل. وعلى أيّ حال، فقد أُطلقت رسائل هيرن وبيلبي، آخر الأمر، من عقالها، ولكن بعد فترة غير يسيرة. فلا عجب إذا استثار ذلك الصنيع حنق المراسلين وثورتهما. (ولقد لقي غلوب باشا المتاعب نفسها مع الرقابة الأردنية في كثير من الأحيان!).

والواقع أن «معركة» العقبة تكتنفها الأسرار بعض الشيء. فقد بدا، من عدد القوات الصهيونية المهاجمة، أن المناورة كانت تهدف إلى الاستطلاع أو الاستكشاف. يؤيد ذلك أن غرندل الواقعة جنوبي البحر الميت مباشرة استهدفت لهجوم إسرائيلي آخر كان القصد منه، في ما يبدو، قطع السبيل على الإمدادات الوافدة من عمان إلى العقبة، أو لعله أن يكون مجرد مناورة لتحويل الأنظار عن حقيقة الأهداف الإسرائيلية. بيد أنه بسبب من ضعف القيادة الإسرائيلية المركزية - هذا الضعف الذي تجلّى في فترات الحرب الفلسطينية كلها - لم يوفق الصهيونيون إلى تنسيق جهودهم تنسيقًا حسنًا. فقد وقع الهجوم على غرندل صباح اليوم السابع من آذار، في حين وقع الهجوم على العقبة بعد يوم من ذلك التاريخ.

وبكلمة ثانية، لقد أراد الصهيونيون الاستيلاء على العقبة إذا ما استطاعوا إكراه حاميتها على الاستسلام. وبذلك يتم «أمر واقع» - fait accompli إسرائيلي نموذجي يناقشون على أساس منه في مؤتمر الهدنة برودس. **فقد أدركت الحكومة الإسرائيلية أن مواجهة العالم بأمر واقع تشكل أكثر من نصف معركة الدبلوماسية، وأن مهمة هيئة الأمم المتحدة الرئيسية أشبه بمهمة الختم المطاطي ليس أكثر أو أقل!** وأيًا ما كان، فقد كانت مباحثات الهدنة دائرة آنذاك، وكان الإسرائيليون مصممين على أن ينسحبوا حالما تبدي الحامية العربية مقاومة ذات شأن. إنهم ما كانوا يعرفون شيئًا عن هزال تلك الحامية. والذي يبدو أن التحية

الهائجة الحازمة التي استُقبلوا بها قد أكرهتهم هم على الاستسلام بدلًا من الحامية الأردنية الصغيرة.

وبعد بضعة أيام أخرى، وصلت لجنة التحقيق التابعة لهيئة الأمم المتحدة. وكان يرئس هذه اللجنة الدكتور بول مون Mohn، وهو سويدي قضى شطرًا من الحرب العالمية الثانية في معسكر من معسكرات الاعتقال. كان رجلًا مهزولًا ذا قلب كبير وإرادة حسنة، ولكنه في ما بدا لي كان عالمًا أكثر منه رجلًا صالحًا لمثل هذه المهمة. وكان يعاونه كولونيل أميركي، وضابط فرنسي يحمل الرتبة نفسها، وجنديان آخران أحدهما أميركي والآخر فرنسي. وكان مع اللجنة وحدةٌ إذاعية أميركية كاملة، فلم يكد البريطانيون ينسحبون من فندق العقبة حتى امتلأ من جديد بالأميركيين والفرنسيين. أما أنا فبقيتُ مع جيوفري كروكر في القلعة. وكانت البلدة خلوًا من الطعام تقريبًا. ولقد شعرنا بأن صاحبنا قائد الحامية العربية أقدر منا على ضمان القوت اليومي، فعهدنا إليه في هذه المهمة.

وبعد أسبوع قضيته في الثكنات أُصبت بالحمى، وارتفعت حرارتي ارتفاعًا عاليًا، ولم أعد قادرًا على أن أصنع شيئًا. وعالجني كروكر بالعرق وعصير الليمون الحامض، ولكنّ ذلك لم يجدني فتيلًا. وأخيرًا استدعى الطبيب العسكري البريطاني للعناية بي. وبعد أن تناولت بضعة أقراص من الدواء الذي وصفه لي استعدتُ نشاطي في سرعة أثارت شكوك الطبيب. ولكن ذلك أفقدني على أيّ حالٍ أيامًا عديدة، وفصلَ ما بيني وبين الأحداث الجارية.

وكانت لجنة التحقيق الدولية قد نشطت نشاطًا كبيرًا وحصلت على معلومات وافية ضمّنتها تقاريرها. والواقع أنها علمت أحسن العلم بزحف القوات الإسرائيلية من بير السبع. **ومن أجل ذلك ما كاد تقرير الدكتور مون ينشر في نيويورك حتى دهشنا جميعًا لأن نكتشف أن الإسرائيليين لم يتخطوا الحدود المصرية على الإطلاق، وإذن فهم لم**





**يخرقوا أحكام الهدنة! وأمام هذا التشويه الكامل للوقائع اتضح لنا أن هيئة الأمم المتحدة كانت قد انتهت إلى هذا الاستنتاج العجيب: وهو أن الدبابات والسيارات المصفحة الإسرائيلية كانت لها أجنحة، وأنها طارت من بير السبع طيرانًا، على الرغم من أن السؤال عن الشيء الذي كانت تعمله عبر الحدود في الأردن تُرك من غير ما تفسير.** واستاء العرب أعظم الاستياء، طبعًا، وعصفت في نفوس بعض الأميركيين في المنطقة ثورة حانقة.

وحوالى الفترة التي نُشر فيها ذلك التقرير الدولي قصدت لمقابلة المايجور هورنزبي Hornsby («بوبلز» «Bubbles») الذي قاد الكتيبة الأردنية في غرندل، يوم السابع من آذار. وكان المايجور الشاب متحدرًا من رجل نال شهرة كبيرة في شبه الجزيرة العربية، ولم يكن هو ليعمل أيما عمل يكسف من لمعان اسمه. وحين هاجم الإسرائيليون غرندل صباح ذلك اليوم من آذار كان هورنزبي على رأس قوة أردنية صغيرة كانت تعمل حول غور الأشرم، وهي الصحراء الواقعة إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت.

وغرندل مفترق طرق. فأما الطريق الأفقية فتقود إلى أرض منحدرة كان للبريطانيين فيها، ذات يوم، مستودع لمعدات الحربية، وأما الطريق العمودية فتؤلف حلقة الوصل ما بين عمان ومعان. وليس ثمة شيء في الجوار، حتّى ولا قرية أو نبع ماء. ومن هنا كان واضحًا أن الهجوم تكتيكيّ المغزى أكثر منه عملًا حربيًا قُصد به إلى العدوان. ولم ينسحب المايجور البريطاني وجنوده الأردنيون الاثنا عشر. بل تخيروا لأنفسهم موقعًا خلف مرتفع رمليّ وانتظروا وصول المصفحات الصهيونية. حتى إذا أقبلت الشاحنات وسيارات الجيب والسيارات المصفحة الإسرائيلية (لم تشترك الدبابات في هذا الهجوم فقد كانت الأرض وعرة جدًا) واقتربت من موقع القوة الأردنية، جوبهت بسدٍ من رصاص. واستولى الأردنيون على مجموعة حسنة من الأسلحة الأوتوماتيكية، وأخذ الجنود

الإسرائيليون يتساقطون من شاحناتهم كما تتساقط أكياس الحنطة. وفي خلال دقيقتين اثنتين تقوّض الهجوم واختفت القوة الإسرائيلية خلف الكثبان.

وفي الصباح التالي شن الإسرائيليون هجومًا جديدًا. فبعد أن اكتشفوا وجود القوة الأردنية في ذلك الموقع استاقوا مدفعيّتهم إلى هناك. وكان لديهم كل شيء. كان معهم، وفقًا لشهادة المراقبين، كل شيء ما عدا مدافع الحصار الضخمة من نوع برتا: مدافع قياس ٧٥ مم، ومدافع قياس ٨٨ مم، ومدافع قياس ١٠٥ مم، وعدد من المدافع السريعة الطلقات المضادة للدبابات، وبعض المدافع المضادة للطائرات. ومن السابعة صباحًا حتى الظهر أطلقوا ستارًا من نار المدفعية فوق رمال غرندل نشر سحابة من الدخان والرمل فوق مسرح المعركة. وعند الظهر تمامًا كفّ الإسرائيليون عن إطلاق النار، وتقدمت ناقلاتهم الحافلة بالجند نحو الموقع للاستيلاء عليه من أيدي العرب. ولكنهم لم يجدوا أحدًا طبعًا.

ذلك أن بوبلز وجنوده كانوا قد غادروا الموقع الذي رابطوا فيه في اليوم السالف، وانتقلوا إلى موقع جديد عند سفح كثيب يبعد ثلاثمئة ياردة عن الموقع الأول. ومن هناك أنشأوا يراقبون حركات الإسرائيليين ويهدرون ضاحكين ملء أشداقهم. ولقد قدّروا أن ستار النار الذي نشره المهاجمون فوق رمال الصحراء قد كلف الصهيونيين الأميركيين مئة ألف دولار على الأقل. وفوق ذلك، فقد مزّقت شظايا القذائف عجلات سيارات الجيب وناقلات الجند الإسرائيلية شرّ ممزق، فغنم الجيش الأردني ما يزيد على عشرين سيارةً نتيجة لذلك الهجوم العابث، لأن الإسرائيليين ما كادوا يكتشفون أن القوة الأردنية قد أخلت الموقع حتى انكفأوا إلى إسرائيل، واختُتمت المعركة.

والحقّ أن هذه الوقعة كانت آخر معارك الحرب. فمن ذلك الحين وُقعت بين إسرائيل والدول العربية (ما خلا العراق الذي ما يزال في





حرب مع الإسرائيليين) سلسلة متعاقبة من الهُدَن أقامت سلمًا تقنيًا، **سلمًا كان الإسرائيليون قد خرقوا حرمته، قبل ذلك، خرقًا متكررًا من طريق العدوان الإقليمي، وأعمال الخطف، وشنّ الغارات.**

# ٩. إسرائيل سرطان...

عقدت مصر الهدنة مع إسرائيل في الرابع والعشرين من شباط. وبعد ذلك التاريخ جعلت التطورات السياسية والعسكرية في الشرق الأوسط مركز العرب حرجًا إلى حد بعيد. لقد واجهوا في رودس مندوبي إسرائيل المتصلبين المتعنتين، ولم يعمل رالف بانش الوسيط الدولي شيئًا يكون من نتيجته تحسين الوضع تحسينًا حقيقيًا. ذلك بأن الإسرائيليين وقد استشعروا أن البيت الأبيض من ورائهم، ما كانوا مستعدين للتساهل في شيء على الإطلاق. وفي غمرة من العجز، وبسببٍ من فقدان حكومة قوية في كلا البلدين، اضطرّ شرقي الأردن واضطرت سورية، آخر الأمر، إلى قبول الهدنة.

وفي عمان، كان مركز الملك عبد الله بائسًا حقًا. كان أفراد رعيته يتجادلون في موقفه من الحرب، وكان تدفق مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين (الذين كانوا ناقمين على سياسته أشد النقمة بسببٍ من انسحاب القوات الأردنية انسحابًا محفوفًا بالأسرار في نوار ١٩٤٨) على مملكته قد زاد في متاعب العرش. ففي نوار ١٩٤٩ كان في البلاد الأردنية عدد من اللاجئين الفلسطينيين يعدل عدد سكانها الأصليين. لقد كان سكان الأردن ٤٠٠،٠٠٠ نسمة في كانون الثاني من عام ١٩٤٨، فأمسوا بعد عام واحد ٨٠٠،٠٠٠ نسمة وزيادة.

ومن الناحية العسكرية كان مركز الأردن سيئًا جدًا. فلم يكن لدى الجيش ذخيرة حربية، ولم يكن البريطانيون يمدونه بالعتاد إلا مدًّا شحيحًا. ولم يكن لدى المملكة الأردنية سلاح جوي عسكري. ولم يكن عندها من سلاح الدبابات والمصفحات غير تلك السيارات





المصفحة التي أبلت بلاءً باهرًا في إنقاذ القدس القديمة. وعلى الرغم من تعزيز الجيش بعدد وافر من المجندين الجدد، فقد كان الفقر إلى الأعتدة يُفقد هذا الكسب أهميته ويُخرجه من الحساب.

وكانت الحال في دمشق لا تقلّ سوءًا عنها في عمان. وكانت زعامة الرئيس شكري القوتلي غير الحاسمة قد قُوِّضت دعائمها بسببٍ من الحرب الفلسطينية. وتفصيل الأمر أن الجيش السوري، المتحرر حديثًا من سلطان الفرنسيين، لم يكن مزوّدًا بأكثر من مقادير رمزية من أعتدة عتيقة مُماتة، وكان يشكو نقصًا كبيرًا في عدد الضباط ومن دونهم من الجنود. فبينا كان الجيش الإسرائيلي غنيًا بالقوات المتمرّسة التي خاضت غمرات الحرب الحديثة، معزّزًا بمئات من العساكر الأجنبية المرتزقة، مزوّدًا بأوفر السلاح وأشده فتكًا بعد الهدنة الأولى، كان جيش سورية غير المنظم، وجيش الأردن البوليسي يعانيان نقصًا في العدد والقيمة. والحق، أنه لم يكن ثمة ما يمكن أن يُعمل. كانت الروح وثابة، ولكن لم يكن وراءها شيء ماديّ يدعمها.

وهكذا وقع لبنان الهدنة مع إسرائيل في ٢٣ آذار، وتبعته المملكة الأردنية في ٣ نيسان. وكانت سورية آخر من وقّع، مُنهيةً النشاط الحربي الفعلي في العشرين من تموز ١٩٤٩. وهكذا اختُتمت الحرب الفلسطينية جزءًا بعد جزء، وجبهة بعد جبهة.

وفي تلك الأثناء كانت دمشق تشهد أحداثًا ذات شأن. فبعيد توقيع الهدنة اللبنانية الإسرائيلية حدثت في سورية إحدى ثوراتها المعجزة التي لا يكاد يصاب فيها أحدٌ بسوء. ففي الصباح الباكر من يوم ٢٩ آذار، تقدمت مجموعات من السيارات المصفحة والدبابات الصغيرة تقدمًا هادئًا إلى المراكز المعينة لها في مختلف أرجاء دمشق، وهناك انتظرت أوامر جديدة من الزعيم (الكولونيل) حسني الزعيم قائد الجيش السوري في الجبهة الفلسطينية. وكان الزعيم حسني هذا، وهو كرديّ قصير بدينٌ من حلب، يبتغي الاستيلاء على مقاليد الحكم. وكان

إلى جانبه نفرٌ قليل من كبار الضباط السوريين عُرفوا بكل بساطة بـ«الزعماء» (جمع زعيم أي كولونيل).

ومن غير ما لجوء إلى العنف اقتيد الرئيس القوتلي ومختلف أعضاء حكومته من فُرشهم الدافئة وأُلقي بهم في السجن. أما الرئيس فقد احتُجز بسببٍ من سنه العالية وصحته المعتلة، في أحد المستشفيات. وعندَ الساعة السادسة كان الزعيم حسني الزعيم يرئس الحكومة السورية، وحُل البرلمان السوري، وأُعلنت الأحكام العرفية، وأذاع رئيس الدولة الجديد ثلاثة بيانات في الناس حذرهم فيها من الإتيان بأيما عمل ضد الانقلاب وطمأنهم إلى سلامتهم إذا ما أخلوا الشوارع عندما يحين موعد منع التجول.

ولم يصب أحدٌ بأذى، في ما يبدو، على الرغم من أن أحد الأوروبيين، وكان ينزل في فندق «أوريان بالاس» المواجه لمحطة السكة الحديدية والمجاور لعدد من دور الحكومة السورية، أخبرني أنه أفاق ذلك الصباح كالعادة، ونَعِمَ بفطوره، شأنه كل يوم، ثم ارتدى ملابسه واندفع في نشاط بالغ إلى الشارع...

وتابع محدثي كلامه فقال إنه ما كاد يخرج من الفندق حتى لقيَ أمامه مباشرةً دبابة موصدة البرج. وكان ينبثق من برج الدبابة مدفعٌ، بدا وكأنما كان يحملق في فمه المفتوح. وفي الحال انقلب راجعًا إلى الفندق، ففقد المدفع اهتمامه البالغ به، وراح يحدّق الطرف في مكان آخر. وباستثناء بضع صدمات عصبيّة مشابهة لم يسقط ضحية الانقلاب أحد قطّ، في تلك الآونة، على الأقلّ.

وبعد أيام قليلة سعدتُ بمقابلة الزعيم حسني الزعيم. وكانت الحدود السورية اللبنانية والحدود السورية الأردنية قد أغلقت بسبب من شعور الزعيم بأن موقف الحكومتين الأردنية واللبنانية من إسرائيل كان ضعيفًا بأكثر مما ينبغي. وهكذا كان القاصدون إلى دمشق عبر جبال





لبنان الفاتنة يجدون أنفسهم مضطرين إلى التوقف عند الحدود السورية في سهل البقاع الذي لا يقل فتنةً وجمالًا عن الجبال اللبنانية. أما القاصدون إلى دمشق من شرقي الأردن - شأني أنا - فكانوا يُصدون عن سبيلهم في درعا حيث لم تكن فتنة أو سحر كاللذين يتعزى بهما المسافر من طريق بيروت. وأيًا ما كان، فقد كان الدخول إلى سورية يقتضي أن تكون لك صفة ديبلوماسية رفيعة. ولكن وطأة هذه القيود ما لبثت أن خفت، لحسن الطالع.

وكان برنامج الزعيم جيدًا في ما يبدو. كان يعتزم أن يقدم إلى سورية دستورًا جديدًا يحقق كثيرًا من وجوه الإصلاح، وفيها منح المرأة السورية حق التصويت في الانتخابات النيابية. وأسهب الزعيم في الكلام حول هذا الموضوع، فقال لي بالفرنسية وفي ابتهاج عارم:

«إن نساء سورية سوف يرتدين الملابس الأوروبية. إنهنّ سوف يرقصن في الشوارع!».

ولكن كان ثمة شيء في سياسة حسني الزعيم لم يحظَ برضا الشعب، وهو ربطُ سورية بتحالف وثيق العرى مع فرنسا. وليس من ريب في أن الذي حدا حسني الزعيم على اتخاذ هذا الموقف هو رغبته، في المحل الأول، في تعزيز الجيش السوري لتمكينه من الصمود في وجه إسرائيل، على الرغم من أنه قد تكون ثمة حوافز أخرى. وأيًا ما كان، فقد تراءى للشعب السوري أن الزعيم كان يسعى لإعادة السيطرة الفرنسية إلى البلاد، ولم تكن قد انقضت غير فترة يسيرة على تحررها من نيرها. بيد أن ذلك كان مجرد وهم. والواقع أن تشوّش السياسة في الشرق الأوسط ظاهرةٌ لا أعتزم أن أفيض في الكلام حولها، ولست بقادرٍ على ذلك. ولكن حين أوصد حسني ميناء اللاذقية في أواخر شهر نوار وبدأ فيض فجائي من العتاد العسكري الفرنسي يظهر في ميادين حلب وحمص وحماه، ساورت الناس شكوك جدية، ولعل هذه الشكوك أن تكون هي السبب في مصرع الزعيم في منتصف

شهر آب من السنة نفسها، وكان الرجل الذي حكم عليه بالموت قد اشترك معه في خلع شكري القوتلي، أعني الزعيم سامي الحناوي.

تلك صورة عن الوضع الداخلي في البلاد العربية. وفيما لم يُجابه الملك عبد الله بأيما ثورة علنية، فليس يدري أحدٌ إلى أيّ مدى كانت سلامته رهنًا بالتفاف الجيش الأردني حوله. وليس من ريب في أن عاصمته عمان كانت تغص بمخيمات اللاجئين، وأن مخيماتٍ أخرى كانت تنتصب قرب قصره الشتوي في الشونة، وفي أريحا بحيث لا يكون في ميسوره أن يتجاهلها حتى ولو رغب في ذلك..

والواقع أن الملك عبد الله بذل كل ما في وسعه من جهد لرفع معنوية اللاجئين البائسين الذين أضحوا، فُجاءة، من غير مأوى، ومن غير ممتلكات أو مال. فكانت قطعان من الغنم تساق، على نحوٍ مطّرد، إلى مخيمات اللاجئين، تعزيزًا لأعمال الإغاثة التي كانت تنهض بها جمعية الأصدقاء (الفرندز) الأميركية والصليب الأحمر الدولي. ولكن برغم هذه الجهود الجبارة كان ما بُذل من نشاط في إغاثة اللاجئين دون الكفاية بكثير، فإذا بكلٍّ من المعسكرات يشهد أسبوعيًا مصرع عددٍ من أولئك البائسين بسببٍ من المجاعة والعري. وكان شتاء سنة ١٩٤٩ وربيعها من أسوأ ما شهدته تلك المنطقة في تاريخها الحديث، وكانت الصحراء منقّطة بأجساد الحملان وصغار الجمال التي صرعها الصقيع.

وكان الدكتور بانش قد رجع، في تلك الأثناء، إلى الوطن، تاركًا الميدان للجنة الهدنة المختلطة في دمشق. وكان يرئس هذه اللجنة الجنرال وليم رايلي، الذي اتخذ من الدور الثالث في فندق «أوريان بالاس» مقرًا عامًا له، وأشرف على نشاط المراقبين الدوليين، على اختلاف فِرقهم، من هناك. وكان قد اتضح في الحال، تقريبًا، أن إسرائيل لا تعتزم احترام اتفاقيات الهدنة المتعددة إذا ما رأت أن من مصلحتها خرقها أو تجاهلها. **وهكذا غُزيت القرى العربية ودُمرت على**



**نحوٍ موصول، وطُرد سكانها إلى مناطق أخرى، وضمت إلى الأراضي الإسرائيلية بمختلف الحجج والذرائع. وهذه الاعتداءات هي من الكثرة بحيث يكون من العبث تقديم لائحة بها في هذا المجال، وهي مدونة كلها في سجلات هيئة الأمم المتحدة. وكان كل احتجاج تقدمه الدول العربية على هذه الأعمال العدوانية لا يثير عند حكام تل أبيب غير الاستهتار وتحريف الوقائع، ولا يخلق في ليك سكس غير قصة ملفقة في عناية بالغة. ولكن إسرائيل ما كان في استطاعتها أن تخدع الناس القريبين من مسرح الحوادث. ومن هنا جعلت تلك الاعتداءات من المراقبين الدوليين جماعةً لم يعرف هذا العصر أشدّ منهم نقمةً على الصهيونيين وعداوةً لهم.**

ولعل أبشع حوادث العدوان هذه ما ترتكبه «شركة تجفيف بحيرة الحولة» على الرغم من أن غيرها لا يقلّ عنها أذًى وضررًا. وتقوم بحيرة الحولة عند الطرف الشمالي الأقصى من وادي عربة. في حين أن العقبة هي الطرف الجنوبيّ الأقصى في أوراسيا[1]. وتقع الحولة حيث يبدأ الأردن. وإنما يغادر الأردن (الذي حرّف الصليبيون اسمه إلى «جوردان» Jordan) بحيرة الحولة نهرًا صغيرًا ينساب في هدوء مسافةً غير طويلة ليندفع بعد ذلك فجأةً إلى المضايق والشلالات التي تنخفض وشيكًا بالنهر المتضخم حتى تنتهي به إلى بحيرة طبريا. وبعد أن يفارق هذه البحيرة يتخذ سبيله المتعرجة إلى أن يختفي عن العيان في البحر الميت. أما المضيق الناشئ عن تقلص قشرة الأرض وعن الزلازل وغيرها فيستمرّ في اتجاه الجنوب حتى العقبة.

وتطرأ على صفة نهر الأردن خلال سيره تغيرات جذرية، فهو يبدأ عذبًا بمياه الينابيع والجداول المحتشدة من سفوح جبل حرمون ثم يجمع مقادير من المعادن القلوية خلال انحداره من ارتفاع يبلغ نحوًا

(١) أروبة وآسيا منظورًا إليهما كوحدة. [المعرب]

من مئتي قدم فوق سطح البحر، حتى ينتهي إلى تحوّله النهائي حين يصب في البحر الميت المنخفض نحوًا من ١,٣٠٠ قدم تحت سطح البحر. ونسبة المواد القلوية[١] في نهر الأردن هي التي تقرر ما إذا كان في ميسور الغلال أن تنمو على ضفافه، التي هي عربية طبعًا، أم لا. وبحيرة الحولة سورية في معظمها، ولكنها مجاورة لإسرائيل جزئيًا، ولقد قام الصهاينة باعتداءات متعاظمة في تلك المنطقة برغم أنف الهدنة. ولو استطاعت إسرائيل أن تجفف أو تحوّل مجرى الينابيع العذبة المجتمعة في بحيرة الحولة - البالغة مساحتها ستة أميال مربعة - إذن لاستطاعوا أن يزيدوا في نسبة المواد القلوية في الأردن الأدنى، وبذلك تغدو الأراضي التي تتميز اليوم بالخصب أراضي مجدبة، وتُهجر المدن الزراعية القائمة اليوم على ضفاف الأردن، والأراضي المروية المجاورة لها.

وذلك، في ما يفترض، هو الهدف الذي يرمي إليه الإسرائيليون. فما إن تُهجر القرى حتى يهرع الصهاينة إلى الأراضي القاحلة، ويفتحوا سدودهم. وحين تستعيد المياه عذوبتها، ينبت الزرع من جديد وتكون إسرائيل قد ضربت ضربةً غادرة جديدة. ولقد احتجت الحكومة الأردنية احتجاجات متوالية لدى الأمم المتحدة، على هذه الأعمال العدوانية، ولكن تلك الهيئة العاقر لم تحرّك ساكنًا، ولم تعمل عملًا.

والواقع أن «شركة تجفيف بحيرة الحولة» باشرت أعمالها منذ فترة من الزمان. وكانت الخطة تقصد، في الأصل، إلى تجفيف البحيرة «مكافحةً للملاريا». ولكن هذه الذريعة نُسيت اليوم، في ما يظهر، فإسرائيل تزعم أنها تقوم بمحاولة «استصلاح للأرض ابتغاء تعزيز إمكانياتها الزراعية» وليس من ريب في أن إسرائيل في حاجة إلى

(١) من المعروف أن المواد القلوية تنزل بالزراعة أذى كبيرًا. [المعرب]





الأراضي الزراعية لكي تغذي مشاريعها الخاصة بالهجرة على نطاق واسع، **ولكن ليس يمكن أن يكون ثمة مبرر شرعي لارتكاب هذه الجريمة الجديدة ضد العرب لأن مساحة الستة الأميال المربعة لن تفيد إسرائيل شيئًا إذا لم تُضف إليها الأراضي العربية القائمة على ضفتي الأردن أيضًا**. وثمة قول بأن شركة تجفيف بحيرة الحولة إنما جُمعت أموالها في نيويورك، ولكن هذه الشركة هي على أيّ حال، شأنَ كل شركة من شركات استصلاح الأرض في إسرائيل، ملك حكومة تل أبيب.

وحكومتا سورية والأردن تدركان أتم الإدراك مطامع إسرائيل التوسعية هذه، وتتوقعان دائمًا أن تقوم بعدوان جديد على خطوط الهدنة من أقصى الشمال حتى خليج العقبة، حيث أنشأت تل أبيب «ميناء عميق المياه» عند مأوى ذلك الصياد القديم الذي أشرنا إليه آنفًا، وأطلقت عليه اسم «إيلات» الجاهز. وتُحمل المياه إلى هناك على متون الطائرات، لأنه ليس ثمة ينابيع أو طرق بين بير السبع و«إيلات». ولقد وفق نفرٌ قليل من الإسرائيليين المغامرين إلى أن يبنوا آخر الأمر بيوتًا لهم حقيرةً في ذلك المكان القصيّ، فهم يأكلون من علب الطعام المحفوظ التي تلقى إليهم بواسطة المظلات. أما في موضوع «الميناء العميق المياه» فنحب أن ننص ههنا على أن الطرف الشمالي من خليج العقبة يضاهي زميله الفارسي ضحولةً، وأن الجزء القابل للملاحة من ذلك الخليج إنما يبدأ في المنطقة العربية.

❊ ❊ ❊

**إن دولة إسرائيل سرطان أُقحم ظلمًا وعدوانًا، وفي كثير من العنف، إلى الشرق الأوسط. ولكنها بخلاف السرطان لا تستطيع أن تحيا إلى ما لا نهاية له على حساب جيرانها، ولا بد لها من أن تموت آخر الأمر ما دامت لا تملك في ذاتها مقومات الحياة.** لقد قيل إن دافيد

بن غوريون تباهى يومًا بأن «حدود إسرائيل تقع على ضفاف الفرات». وسواء أكان بن غوريون قد قال ذلك حقًا أم لم يقله، فالذي لا ريب فيه أن مسلك إسرائيل كله يؤذن بأنها تهدف إلى هذه الغاية. وفي الوقت نفسه تحاول إسرائيل أن تحشر ما يزيد على مليون تاجر من أهل المدن في ثلاثة أرباع بلدٍ لا يستطيع كله أن يحتمل نصف ذلك العدد. وليس ثمة في إسرائيل أيما تصدير صناعي، ولن يكون شيء من ذلك ممكنًا، ما دام يتعيَّن على إسرائيل - حتى لو استطاعت إنشاء صناعات قوية - أن تتنافس في هذا الميدان مع فرنسا وبريطانيا واليابان. وإذ كانت صناعات إسرائيل تعاني منذ الآن ارتفاعًا متضخمًا في أجور العمل، فالمستقبل يبدو من هذه الناحية غير مشرق البتة.

لقد تردد في الصحف الأميركية أن في النقب وغيرها من الأراضي الداخلة في حدود إسرائيل إمكانيات نفطية حسنة. ولكنا نحسب أنه لو كان ذلك صحيحًا إذن لكان خليقًا به أن يثير اهتمام دوائر المسح الجيولوجي في حكومة واحدة على الأقل وفي كثير من شركات البترول، ويوقع في قلوبها الغبطة والابتهاج...

وأخيرًا يُشار إلى موارد البحر الميت كثروة وطنية تدعم مستقبل إسرائيل الاقتصادي. ولكن على الرغم من وجود المغنيزيوم والبرومين وغيرهما من المعادن في البحر الميت، فإن إسرائيل لا تستطيع التفرّد في استغلال هذه الموارد وفقًا لأحكام القانون الدولي الذي يحرّم على الدولة التي تحتل جزءًا من جسم مائي منغلق تملكه عدة دول أن تستقلّ بالقيام بأي تدبير من شأنه أن يؤثر في مستوى المياه أو في خصائصها الطبيعية. والحق أن أكثر من سبعين بالمئة من سواحل البحر الميت يقع، وفقًا لاتفاقية الهدنة الأردنية الإسرائيلية، في الأراضي الأردنية، فهو ملكٌ خالصٌ لها.

**وعلى الجملة، فإن الوضع يبدو عجيبًا إلى حدٍّ متطرف. لقد ابتليت فلسطين فجأةً - وهي منذ القدم بلدٌ عربي - بذلك الشعب**





**الأجنبي العدواني الغريب عنها غرابته عن مانهاتان نفسها. وهو شعب لا موارد له، شعبٌ عالةٌ على الأموال الأجنبية التي ترده من وراء البحار.**

**إن إسرائيل لن تعمّر طويلًا. وإذا ما سُمح لها بذلك فعندئذ يكون بقاؤها على قيد الحياة أعجوبة شريرة!**

# الفهرس

**« ادفعْ دولاراً تَقتُلْ عربيًا »**

شعار طُرح في مدينة نيويورك سنة ١٩٤٨ يحثّ الأميركيين على التبرع للصهاينة في فلسطين من أجل الإمعان في إبادة العرب وتهجيرهم من أرضهم. وقد أثار المؤلفَ لورانس غريزوولد الوحشيةُ التي مارسوها تحقيقاً لهدفهم في إقامة دولتهم على أنقاض دولة وشعب حيّ، وأثاره أكثر أن لا يسمع الأميركيّون غير وجهة النظر الصهيونية، فقام برحلة إلى مختلف الدول العربية؛ وخطّ على أثرها مؤلَّفَه هذا.

كان للكتاب وقع السلاح المدمّر على الصهاينة الأميركيين، فأوعزوا إلى حكومة إسرائيل التي أوعزت إلى جميع سفاراتها ومفوّضيّاتها في الخارج بأن تصادر الكتاب من الأسواق وتتلف نسخه.

لم تتغيّر ممارسات إسرائيل وأساليبها ونواياها في العام ٢٠٠٠، فالحروب تُشَنُّ ولا حسيب، والإبادة تمارَس ولا رقيب، ويُعَدُّ المبادون نساءً وشيوخاً وأطفالاً إرهابيّين و أهل شغب يجب أن يؤدَّبوا. كذلك لم يتغيّر موقف الأميركيين من الائتمار بأمر الصهاينة. كأنّ كل شيء يتكرر، وتُستنسخ كل يوم مذابح دير ياسين حيث شاء الصهاينة.

في الكتاب حقائق مذهلة لم تُنشر من قبل عن مذبحة دير ياسين وغيرها من القرى العربية، وأسرار تُلقي الضوء على الكارثة الفلسطينية. وفي خاتمة الكتاب ما يشبه النبوءة من المؤلف الأميركي مفادها «أنّ إسرائيل لن تعمّر طويلاً، وإذا سُمح لها بذلك، فعندئذٍ يكون بقاؤها على قيد الحياة أعجوبة شرّيرة».

والنسخة العربيّة هذه هي الترجمة التي قام بها شيخ المترجمين العرب، الأستاذ منير البعلبكي، والتي نشرتها دار العلم للملايين للمرّة الأولى في العام ١٩٥٤.

